

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلَّهُ، فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^١.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا

رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^٢.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^٣.

أما بعد فإن الله تعالى أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم على حين فترة من الرسل وانقطاع من الوحي وأمره أن يصدع بالدعوة، وأن ينذر أم القرى ومن حولها، وأنزل عليه القرآن تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة للمؤمنين، وحجة على العباد أجمعين، بلسان عربي مبين، وجعله من دلائل نبوته، معجزة باقية على مر الأيام، وكر الدهور، تحدى به العرب والعجم، بل الإنس والجن أن يأتوا بمثله وهم أرباب الفصاحة، وأساطين البلاغة، والبيان صنعتهم التي يجيدون، ولها يقيمون أسواقهم عكاظ والمجنة وذو الحجاز للتباري بما انتجته قرائحهم، من القصائد المعلقة والمنظومات المطولات، فلما أنزل الله تعالى القرآن، رأوا لوناً من البيان لا عهد لهم به، يذري بكل كلام، ويتضائل أمامه كل بيان، فجتوا أمامه على الركب، وأذعنوا له صاغرين، فلما أنزل الله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ

١ - سورة آل عمران: الآية / ١٠٢

٢ - سورة النساء: الآية / ١

٣ - سورة الأحزاب: الآية / ٧٠، ٧١

يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿[الإسراء: ٨٨]﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، وتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن في شرف اللفظ وعلو النظم، فأرثموا ولم يزيدوا على الصمت، وعجزوا عن معارضته، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، أي: مثله في النظم، وإن كان المعنى مفترى، فما ازدادوا إلا حيرة، ولم ينبسوا ببنت شفة، لعلمهم أنه ليس من كلام البشر، ولا يدانيه في الفصاحة وحسن السبك كلام، ولما لم تظهر منهم بادرة لقبول التحدي، ولم يغامر أحد منهم بكلام يعارض القرآن، قال من قال بالصرفة؛ أي: أن الله تعالى صرف همهم عن معارضة القرآن مع قدرتهم على ذلك، وهو مذهب باطل قطعاً، بل عجزوا عن ذلك لما يرون من البون الشاسع، والفرق الهائل بين القرآن وغيره من كلام الفصحاء، فلما عجزوا عن ذلك تنزل معهم في التحدي إلى أقصر سورة من سور القرآن؛ فقال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، ثم بالغ في التحدي مراغمًا لهم فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا...﴾ [البقرة: ٢٤]، فأخبر عن عجزهم في الحال وعن عجزهم في المستقبل، مع توفر الدواعي عندهم لمعارضة القرآن، ووآد الدعوة في مهدها.

وقد أقرروا أنَّ القرآن لا يشبه كلام البشر؛ فعن ابن عباس: أنَّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن، فكأنه رَقَّ له، فبَلَغَ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم، إِنَّ قَوْمَكَ يَزَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا، قال: لم؟ قال: لِيُعْطَوْكَه، فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لَتَعْرِضَ لِمَا قَبْلَهُ، قال: قد عَلِمْتَ قَرِيشُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، قال: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنْكَ مِنْكَرٌ لَهُ، أَوْ أَنْكَ كَارَةٌ لَهُ، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجلٌ أعلمَ بالأشعار مني، ولا أعلمَ بَرَجَزِهِ ولا بَقْصِيدِهِ مني، ولا بأشعار الجنِّ، والله ما يُشْبِهُهُ الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إِنَّ لِقَوْلِهِ الذي يقول حلاوةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثَمِّرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وما يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحِطُّ ما تَحْتَهُ، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال:

فَدَعَنِي حَتَّى أَفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يُؤَثِّرُ، يَأْثُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المذثر: ١١].^١

ولما كان القرآن قد نزل بلغة قريش؛ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿[الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥]، وكما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، ونزل كذلك على طرائق كلامهم، وأساليبهم البلاغية، مع ما فيه من مبتكرات لا عهد لهم بها، فوجدوا فيه ما يدهش الألباب، ويذهل العقول، لما بينه وبين كلامهم من البون الهائل.

تحداهم الله تعالى وهم العرب اللسن، أرباب الفصاحة، وأساطين البلاغة وأعلم الناس بأنواع الكلام نظماً ونثراً، تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، مع أنه أنزله بلسانهم، فإذا عجزوا عن معارضته كان أدل دليل على أنه من عند الله تعالى، وقطع حجتهم؛ فقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾^٢.

فلما عجزوا عن معارضته مع توفر الدواعي لذلك، وحرصهم على إسكات رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يسفه أحلامهم ويعيب آلهتهم، حتى سعوا إلى حبسه عن الناس حتى لا يسمعو كلامه، أو نفيه من بلادهم حتى يتأثر بدعوته أحد، أو قتله؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^٣.

وكان أهون من ذلك كله أن ينبري له أرباب البلاغة منهم، فيدبجون كلاماً في عدة مقطوعات نثرية، وينمقونها، ويقولون هذا مثل ما أتيت به من القرآن، ولا يحتاجون إلى تجريد

١ - رواه الحاكم في المستدرک - تفسير سورة المذثر، حديث رقم: ٣٩١٤

٢ - سورة فصلت: الآية / ٤٤

٣ - سورة الأنفال: الآية / ٣٠

السيوف، وتجيش الجيوش لحربه، ولكنهم يعلمون أن ذلك ليس بمقدورهم، وإذا عجزوا عن معارضته فمن بعدهم أشد عجزًا، لعلمهم أن الفرق بين ما أتاهم به من القرآن وبين كلامهم هائل، والبون بين الكلامين شاسع، يدرك ذلك كل واحد منهم، وهل أدل على ذلك من أن يسمع أعرابي قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، فيخر ساجداً! فيقال له: لم سجدت وليس الموضع موضع سجود؟ فيقول: سجدت لفصاحته.

وقد اشتمل القرآن على طرائق العرب في كلامها، وفيه ما في كلامهم من الأساليب البلاغية، مع ما في القرآن من مبتكرات لا عهد للعرب بها، ومنها نظمه الذي خالف المعهود عندهم من الشعر والسجع، ومن ذلك كثير من الألفاظ التي لا عهد للعرب بها، وكثير من التراكيب اللغوية التي لم يعرفها العرب قبل نزول القرآن، ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وهذا أصدق مثل وأبشع للكافر، إِنْ وعظته وزجرته فهو ضالٌّ، وَإِنْ تركته فهو ضالٌّ، ولم يُسمع مثله قبل القرآن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]، فَإِنْ أوهن البيوت وأضعفها على الإطلاق هو بيت العنكبوت، ولم يسمع هذا التشبيه قبل القرآن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]، فَإِنَّ الأوزار: هي الأحمال والأثقال، التي تكون مع المسافر في سفره فإذا قدم وضع أثقاله، فشبهت حالة انتهاء القتال بحالة وضع المسافر أثقاله إذا رجع من سفره، ولم يسمع هذا التركيب في كلام العرب قبل نزول القرآن، والأمثلة على تلك التراكيب المبتكرة في القرآن كثيرة جداً يطول الكلام بسردها، ومن الأساليب التي عرفها العرب وجاءت في القرآن: الاحتباك، والالتفات، والتضمين، والتغليب، خروج اللفظ مخرج الغالب، واللف والنشر، والإيجاز، والإطناب، وعطف الخاص على العام، وعطف العام على الخاص، والتذييل، والاحتراز، والاعتراض، وضع الظاهر موضع المضمّر، والعام المراد به الخصوص، والترقي، والطباق، والمدرج، والكناية، وضرب الأمثال، والتلفيف، والتقسيم، والتوكيد، وغيرها، وقد ذكرت في هذا البحث بعض تلك الأساليب، ولم يكن القصد استقصاء

الأساليب البلاغية التي في كتاب الله تعالى، وذكرت بعض الآيات التي في كل أسلوب ولم استقصي الآيات محل الاستدلال في كل أسلوب.

عملي في البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة وفصلين وخاتمة، الفصل الأول تكلمت فيه عن إعجاز القرآن، والفصل الثاني تكلمت فيه عن بعض الأساليب البلاغية في القرآن، ثم الخاتمة.

وبعد فهذا جهد المقل فإن أصبت فمن الله تعالى وله الحمد وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان والله ورسوله منه بريئان، والحمد لله أولاً وآخرًا وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

وكتبه: سعيد بن مصطفى محمد دياب

الدوحة في: ١٠ صفر ١٤٤٦ هـ

الموافق: ٤ أغسطس ٢٠٢٥ م

الفصلُ الأوَّلُ

بِلاغةُ القرآنِ

بِلاغةُ القرآنِ

القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة، وهو أحسن الحديث، وهو في أعلى درجة من الفصاحة، وأرفع رتبة في البلاغة، وفصاحة القرآن وجه من وجوه إعجازه، ولفصاحته العالية، وبلاغته الرفيعة، قال الوليد بن المغيرة مقولته المشهورة حين سمعه من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمَغِيرَةَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: يَا عَمِّ! إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنَّ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا. قَالَ: لِمَ؟ قَالَ لِيُعْطَوْكَ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لَتَعْرِضَ لِمَا قَبْلَهُ، قَالَ: قَدْ عَلِمْتَ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكَرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهِ لَهُ قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ فوالله ما فيكم رجلٌ أَعْلَمَ بِالشَّعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجْزِهِ وَلَا بِقَصِيدَتِهِ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ. وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، ووالله إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً وَإِنَّهُ لَمُتَمِرٌ أَعْلَاهُ، مُعَدِّقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَا، وَإِنَّهُ لَيَحْطُمُ مَا تَحْتَهُ»^١.

وقبل أن نتكلم عن فصاحة القرآن وبلاغته، وعن إعجازه الذي بهر العقول، وأدهش الألباب، وسلم له أساطين البلاغة، وسجد له الفصحاء اللسن، نذكر حد الفصاحة والبلاغة، ليتبين المراد، ويُعْلَمَ وجه القصد والسداد، وتتميز الذرى من الوهاد.

حدُّ البلاغة:

البلاغة لغة: مصدر (بُلِّغَ الرَّجُلُ) بالضم: إذا صار بليغاً.^٢

ورجلٌ بليغٌ: حسنُ الكلام فصيحُه، يُبْلَغُ بعبارةٍ لسانِه كنهه ما في قلبِه.^٣

١ - رواه الحاكم في المستدرک - کتاب التفسیر، تفسیر سورة المدثر، حدیث رقم: ٣٩١٤، البيهقي في شعب الإيمان -

باب في الإيمان برسل الله صلوات الله عليهم، حدیث رقم: ١٣٣

٢ - الكليات (ص: ٢٣٦)

٣ - انظر لسان العرب (٨/ ٤٢٠)

واصطلاحًا:

قال أبو هلال العسكري: (وهي إيصال المعنى إلى النفس في أحسن صورة).^١

وقال الرومي: (البلاغة هي الأقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة).

وقال الفارسي: (البَلَاغَةُ معرفة الفصل من الوصل).^٢

وقيل: البلاغة في الكلام: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته.^٣

وقال السكاكي: بلاغة المتكلم أن يكون بحيث يورد كل تركيب له في المورد الذي يليق به المقام، فمعنى توفية خواص التراكيب حقها أن يورد كل كلام موافقا لمقتضى الحال، وقوله في تأدية المعاني وتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها.^٤

وقيل: أن يبلغ بعبارته كنه مراده، مع إيجاز بلا إخلال أو إطالة بلا إملال.^٥

وقيل: ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ.^٦

وعلى هذا فالبلاغة هي التعبير عن المعنى الصحيح لما طابقه من اللفظ الرائق من غير مزيد على المقصد ولا انتقاص عنه في البيان

فعلى هذا فكلما ازداد الكلام في المطابقة للمعنى وشرف الألفاظ ورونق المعاني والتجنب عن الركيك المستغث كان بلاغته أزيد.^٧

١ - معجم الفروق اللغوية (ص: ٣٠)

٢ - البصائر والذخائر (٦٥ / ٢)

٣ - معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص: ٩٣)

٤ - مفتاح العلوم (ص: ٤١٥)

٥ - معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص: ٩٣)، وانظر الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (١ / ٢٠٤)، وحاشية الدسوقي على مختصر المعاني (١ / ١٤٢)

٦ - معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص: ٩٣)، وانظر الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (١ / ٢٠٤)

٧ - الكليات (ص: ٢٣٦)

حَدُّ الْفَصَاحَةِ:

الْفَصَاحَةُ لُغَةٌ: الْخُلُوصُ، وَمِنْهُ: فَصَحَّ وَأَفْصَحَ فَهُوَ مَفْصِيحٌ وَفَصِيحٌ، أَي: خُلِصَ مِنَ الرِّغْوَةِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: وَتَحْتَ الرِّغْوَةِ اللَّبْنُ الْفَصِيحُ.

وَمِنْهُ: فَصَحَ الرَّجُلُ إِذَا جَادَتْ لُغَتُهُ، وَأَفْصَحَ: تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ.

وَأَمَّا فِي اصْطِلَاحِ أَهْلِ الْبَيَانِ، فَهِيَ: صَوْغُ الْكَلَامِ عَلَى وَجْهِ لَهُ تَوْفِيَّةٌ بِتَمَامِ الْأَفْهَامِ لِمَعْنَاهُ وَتَبَيُّنِ الْمُرَادِ مِنْهُ.^١

وَتَزْيِينِ الْأَلْفَافِ بِمَا يَقْرُبُ فَهْمَهُ، وَيَعِزُّبُ نَظْمَهُ، وَيَعِذُّبُ اسْتِمَاعَهُ، وَيَعْجِبُ ابْتِدَاعَهُ، وَتَدَلُّ مَطَالَعَهُ عَلَى مَقَاتِعِهِ، وَتَنْمِ مَبَادِئُهُ عَلَى تَوَالِيهِ لَا بِاسْتِعْمَالِ الشُّوَارِدِ الَّتِي لَا تَفْهَمُ، وَلَا الْأَوَابِدِ الَّتِي لَا تَعْلَمُ.

وَقِيلَ الْفَصَاحَةُ هِيَ: خُلُوصُ الْكَلِمَةِ مِنْ تَنَافُرِ الْحُرُوفِ، كَقَوْلِهِ: تَرَعَى الْهُتْعُخَ. وَمِنْ الْغَرَابَةِ، كَقَوْلِهِ: وَمَرَسْنَا مُسَرَّجًا.

وَمِنْ مَخَالَفَةِ الْقِيَاسِ اللَّغْوِيِّ كَقَوْلِهِ: الْعَلِيَّ الْأَجَلِلِ.

وَخُلُوصُ الْكَلَامِ مِنْ ضَعْفِ التَّأْلِيفِ كَقَوْلِهِ:

جَزَى رَبُّهُ عَنِّي عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ.

وَمِنْ تَنَافُرِ الْكَلِمَاتِ قَوْلُهُ:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرِ ***** وَلَيْسَ قُزْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

وَمِنْ التَّعْقِيدِ، وَهُوَ إِذَا خَالَطَ نَظْمُ الْكَلَامِ فَلَا يُدْرَى كَيْفَ يَتَوَصَّلُ إِلَى مَعْنَاهُ، كَقَوْلِهِ:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمْلَكًا ***** أَبُو أُمِّهِ حَيُّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ

وإما عدم انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثاني الذي هو لازمه والمراد به ظاهر كقوله:

سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُؤُوا ***** وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

فانظر هل ترى في القرآن شيئاً مما ذُكِرَ مما يقدح في فصاحة الكلام، أو يُوسَمُ بأنه ركيك من الألفاظ، أو هل ترى فيه تنافراً بين حروفه، أو لفظاً غريباً يصعب في النطق، أو ينبو عنه السمع؟

﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾^١.

ومن الأمثلة على أن القرآن في أعلى درجات الفصاحة؛ قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^٢. وفيها تكرر حرف الميم ست عشرة مرة، ومع ذلك لا يشعر القارئ بشيء من العسر عند النطق بها، ولا بشيء من الثقل عند سماعها.

ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^٣.

وفيها تكرر حرف القاف عشر مرات، ولا يكاد القارئ يشعر بتوالي هذا الحرف مع شدته وقلقلته، وجهره، واستعلائه، ومع ذلك لا يشعر القارئ إلا بسهولة النطق، وسلاسة الألفاظ.

وصدق الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^٤.

١ - سورة الملك: الآية/ ٣، ٤

٢ - سورة هود: الآية/ ٤٨

٣ - سورة المائدة: الآية/ ٢٧

٤ - سورة القمر: الآية/ ١٧

عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: «جَاءَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ اقْرَأْ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. قَالَ: أَعِدْ، فَأَعَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ لَهُ لِحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثَمِّرٌ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُعْدِقٌ وَمَا يَقُولُ هَذَا بِشَرٍّ»^١.

قلنا إن القرآن في أعلى دَرَجَاتِ الْفَصَاحَةِ، وأرفع مقامات البلاغة، وذكرنا أمثلة من كتاب الله تعالى يتضح بها المراد، ويُعلم بها القصد والسداد، وتتميز بها الذرى من الوهاد.

وهذه شواهد من كلام أرباب الفصاحة، وأساطين البلاغة، تنبئ عن البون الشاسع، والفرق الهائل بين كلام البشر، وكلام رب البشر سبحانه وتعالى.

ذكر أبو عبيدة: أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فسجد وقال: سجدت لفصاحته.

وسمع آخر يقرأ: ﴿فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، فقال أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام^٢.

وحكي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يوما نائما في المسجد فإذا هو بقائم على رأسه يتشهد شهادة الحق فاستخبره فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يحسن كلام العرب وغيرها وأنه سمع رجلا من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها فإذا قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة وهي قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾^٣.

١ - رواه البيهقي في دلائل النبوة- باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز وأنه لا يشبه شيئا

من لغاتهم مع كونهم من أهل اللغة وأرباب اللسان (١٩٩/٢)

٢ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٢٦٢)

٣ - سورة النور: الآية/ ٥٢

وحكى الأصمعي أنه سمع كلام جارية فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك؟ فقالت أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية [القصص: ٧]، فجمع في الآية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.^١

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَثَوْنِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١]، جمع في ثلاث كلمات بين: العنوان، والكتاب، والحاجة.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.^٢

قال بعض العلماء هذه الآية: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ...﴾ من عجائب القرآن لأنها بلفظة ﴿يَا﴾ نادت، و: ﴿أَيُّهَا﴾ نبّهت، و: ﴿النَّمْلُ﴾ عيّنت، و: ﴿ادْخُلُوا﴾ أمرت، و: ﴿مَسَاكِنَكُمْ﴾ نصّت، و: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ حذّرت، و: ﴿سُلَيْمَانُ﴾ خصّت، و: ﴿وَجُنُودُهُ﴾ عمّت، و: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ اعتذرت.

فجمع في هذه الآية على لسان النملة بين النداء، والتنبيه، والأمر، والنهي، والتحذير، والتخصيص، والعموم، والإشارة، والإعذار.

قال ابن كثير رحمه الله: وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير؛ فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة سواء كانت مبسوبة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا؛ وكلما تكرّر حلا وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء؛ وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات؛ فما ظنك بالقلوب الفاهمات؛ وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام، ومجاورة عرش الرحمن؛ كما قال في الترغيب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال في التهيب: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ [الإسراء: ٦٨]، ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ

١ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وحاشية الشمني (١/ ٢٦٢، ٢٦٣)

٢ - سورة النمل: الآية/ ١٨

بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ
كَيْفَ نَذِيرٌ ﴿[الملك: ١٦، ١٧]﴾، وقال في الزجر: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت:
٤٠]، وقال في الوعظ: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]، إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة
والحلاوة، وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي، اشتملت على الأمر بكل
معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء؛ كما قال ابن مسعود
وغیره من السلف: إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فأوعها
سمعتك فإنه خير ما يأمر به أو شر ينهى عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ
عَلَيْهِمْ﴾. الآية.^١

وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفي وصف الجنة والنار وما أعد
الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به وحذرت
وأنذرت؛ ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا ورغبت في الآخرة،
وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب
رجس الشيطان الرجيم.^٢

وقال شهاب الدين القسطلاني: والثاني: أن إعجازه هو الوصف الذي صار به خارجاً
عن جنس كلام العرب من النظم، والنثر، والخطب، والشعر، والرجز، والسجع، فلا يدخل في
شيء منها، ولا يختلط بها مع كون ألفاظه وحروفه من جنس كلامهم، ومستعملة في نظمهم
ونثرهم، ولذلك تحيرت عقولهم، وتدهت أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في حسن كلامهم، فلا
ريب أنه في فصاحته قد قرع القلوب ببديع نظمته، وفي بلاغته قد أصاب المعاني بصائب
سهمه، فإنه حجة الله الواضحة، ومحجته اللائحة، ودليله القاهر، وبرهانه الباهر، ما رام
معارضته شقيّاً إلا تحافت تحافت الفراش في الشهاب، وذُلَّ ذُلَّ النقد حول الليوث الغضاب.

١ - سورة الأعراف: الآية/ ١٥٧

٢ - تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٠)

وقد حكى عن غير واحد ممن عارضه أنه اعترته روعة وهيبة كَفَّتُهُ عن ذلك، كما حكى عن يحيى بن حكيم الغزالي - بتخفيف الزاى وقد تشدد - وكان بليغ الأندلس في زمانه أنه قد رام شيئاً من هذا، فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها، وينسج بزعمه على منوالها، فاعترته خشية ورقة، حملته على التوبة والإنابة.

وحكى أيضاً أن ابن المقفع - وكان أفصح أهل وقته - أنه طلب ذلك ورامه، ونظم كلاماً وجعله مفصلاً، وسماه سوراً، فاجتاز يوماً بصبي يقرأ في مكتب قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَفْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾. الآية، فرجع ومضى ما عمل وقال: أشهد أن هذا لا يُعَارَضُ أبداً، وما هو من كلام البشر.^١

وقال صاحب سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد: (ووجه إعجازه معلوم ضرورة بجزالة لفظه، وفخامة تأليفه، وبلوغه أقصى درجات مراتب البلاغة والفصاحة وحسن التثام كلماته ونظم آياته وبراعة إيجازه وغرابة فنونه وفصاحة وجوه فواتحه وخواتمه، فلا يحتاج العلم به إلى دليل).^٢

وقال أبو عيسى الرماني: فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في والوسائط، بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، فما كان في أعلاها بقعة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلاغاء من الناس، وليست البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيبى، ولا البلاغة أيضاً بتحقيق اللفظ على المعنى، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره، ونافر متكلف، وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ.

فأعلاها طبقة في الحُسْنِ بلاغة القرآن، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم، كإعجاز الشعر المفحم، فهذا معجز للمفحم خاصة، كما أن ذلك معجز للكافة.^٣

١ - المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (٢/ ٢٤٦)

٢ - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٩/ ٤٠٨)

٣ - اعجاز القرآن للرماني (ص: ٧٥، ٧٦)، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله أحمد، ود.

محمد زغلول سلام

وقال أبو بكر الجصاص: وقد علمنا أن القرآن في أعلى طبقات البلاغة فجائز أن يكون التحدي للعجم واقعاً بأن يأتوا بكلام في أعلى طبقات البلاغة بلغتهم التي يتكلمون بها.^١

وقال أبو بكر الباقلاني: وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها، على حدٍ واحدٍ، في حسنِ النظم، وبديعِ التأليفِ والرصفِ، لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب، من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها على حدٍ واحدٍ لا يختلف، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتاً بينا، ويختلف اختلافاً كبيراً، ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر، لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير، عند التكرار وعند تباين الوجوه، واختلاف الأسباب التي يتضمن.^٢

وقال حازم في منهاج البلغاء: إن الإعجاز فيه من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه استمراراً لا توجد له فترة ولا يقدر عليه أحد من البشر وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحائها في العالي منه إلا في الشيء اليسير المحدود ثم تعرض الفترات الإنسانية فتقطع طيب الكلام ورونقه فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه بل توجد في تفاريق وأجزاء منه والفترات في الفصاحة تقع للفصيح إما بسهو يعرض له في الشيء من غير أن يكون جاهلاً به أو من جهل به أو من سامة تعتري فكره أو من هوى للنفس يغلب عليها فيما يحوش عليها خاطره من اقتناص المعاني سمينا كان أو غثا فهذه آفات لا يخلو منها الإنسان الفاضل والطبع الكامل.^٣

وقال الخطابي: أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية؛ فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل؛

١ - أحكام القرآن للجصاص (٣/ ٢٧١)

٢ - إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٣٨)

٣ - نقلاً عن البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٠١)، ولم أجد النص في المطبوع من منهاج البلغاء.

ومنها الجائز الطلق الرَّسْلُ. وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه ألبتة.

فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعها، والقسم الثاني أوسطه وأقصده، والقسم الثالث أدناه وأقربه؛ فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصّةً، وأخذت من كل نوع من أنواعه شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعدوبة، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمضادين لأن العدوبة نتاج السهولة. والجزالة والمتانة تعالجان نوعاً من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبوّ كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ليكون آية بينة لنبيه، ودلالة له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه.

وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمر: منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه. وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها. والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً.

فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف مضمناً أصح المعاني، من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته؛ من تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر

بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه.^١

وقال الخطابي أيضاً: وقد قلت في إعجاز القرآن وجهاً ذهب عنه الناس وهو صنيعة في القلوب وتأثيره في النفوس فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منشوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في حال آخر ما يخلص منه إليه، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، وقال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾.^٢

وكان طبعياً أن يستكين العرب أمام هذه الذروة الرفيعة من البلاغة والبيان، وهي ذروة ليس لها في اللغة العربية سابقة ولا لاحقة، ذروة جعلت العرب حين يستمعون إلى آية تعنو وجوههم لربهم، ويخرون ركعاً وسجداً مشدوهين بجماله مبهورين ببلاغته، وفي ذلك يقول جل وعز: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، ويقول: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾. ولا يزال هذا الشعور الذي كان يختلج في قلوب العرب الأولين تحفق به القلوب في كل عصر لما يفتح من آفاق العالم العلوي، ولما يؤثر به في صميم الوجدان الروحي، وهو يمتاز بأسلوب خاص به ليس شعراً، ولا نثراً مسجوعاً، وإنما هو نظمٌ بديعٌ، فصلت آياته بفواصلٍ تنتهي بها، وتطمئن النفس إلى الوقوف عندها.^٣

وقال الراغب: فألفاظ القرآن هي لبّ كلام العرب وزيدته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم، وحكمهم، وإليها مفرع حدّاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرّعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة.^٤

١ - بيان إعجاز القرآن (ص: ٢٦ - ٢٨)

٢ - بيان إعجاز القرآن للخطابي (ص: ٧٠)

٣ - الفن ومذاهبه في النثر العربي (ص: ٤٦)

٤ - المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٥)

وقال الجرجاني: الإعجاز: في الكلام هو أن يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عده من الطرق.^١

وإعجاز القرآن: ارتقاؤه في البلاغة إلى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته.^٢

وإنما أطلت النفس في النقل عن أئمة الإسلام ردًا على من يتوهم أن القرآن ككلام البشر، يعتريه من الضعف ما يعتري كلام البشر، أو أن فصاحته يدانيها كلام الفصحاء، وتقاربها أساليب البلغاء.

١ - التعريفات (ص: ٣١)

٢ - الكليات (ص: ١٤٩)

الفصلُ الثَّانِي
مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ الْبَلَاغِيَّةِ

الاحتباك

الاحتباك من أبداع أساليب القرآن البلاغية، ومن ألطف أنواع البديع في الكتاب العزيز، وقل من تنبّه له أو نبّه عليه من أهل البلاغة، ذكره الزركشي في البرهان وسماه الحذف المقابلي، وأفرده الإمام البقاعي بالتأليف وسماه: (الإدراك لفن الاحتباك).

وقال البقاعي: هو فن عزيز نفيس وقد جمعت فيه كتاباً حسناً ذكرت فيه تعريفه ومأخذه من اللغة وما حضرني من أمثله من الكتاب العزيز وكلام الفقهاء وسميته: «الإدراك لفن الاحتباك»^١.

وهو من إبداعات القرآن وعناصر إعجازه.^٢

حدُّ الاحتباك:

الاحتباك لغةً: افتعال من الحبك وهو: أثر حسن الصنعة في الشيء واستوائها.

قال ابن الأعرابي: كل شيء أحكمته وأحسنّت عمله فقد احتبكتة.^٣

وقال أبو إسحاق: والمحبوك: ما أُجيد عمله. وقال شمر: دابةٌ محبوكةٌ إذا كانت مُدبجة الخلق.

وقال الليث: الحباك: رباطُ الحظيرة بقصبات تُعرّضُ ثم تُشدّ. تقول: حبكتُ الحظيرةَ كما تُحبكُ عُروش الكرم بالخيال.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]، فسرهُ أبو عبيدة بالاستواء وحسن الخلق.^٥

وقال ابن فارس: الحاء والباء والكاف أصل منقاس مطرد، وهو إحكام الشيء في امتداد واطراد. يقال بعير محبوك القرى، أي: قويّه. ومن الاحتباك الاحتباء، وهو شد الإزار؛ وهو

١ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٢٢٥)

٢ - البلاغة العربية (١/ ٣٤٧)

٣ - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٤: ١٥٧٨)

٤ - تهذيب اللغة (٤: ٦٧)

٥ - غريب الحديث (٤/ ٣١٢)

قياس الباب، وحبك السماء في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]، فقال قوم: ذات الخلق الحسن المحكم.^١

الاحتباك اصطلاحاً:

قال الزركشي: هو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من كل واحد منهما مقابله، لدلالة الآخر عليه.

وقال الحافظ السيوطي: الاحتباك: هو أن يُحذف من الأول ما أُثبتَ نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أُثبتَ نظيره في الأول.^٢

وقال في عقود الجمان:^٣

قُلْتُ وَمِنْهُ الْإِحْتِبَاكُ يُخْتَصَرُ ***** مِنْ شَقِي الْجُمْلَةِ ضِدُّ مَا ذُكِرَ
وَهُوَ لَطِيفٌ رَاقٍ لِلْمُقْتَبِسِ ***** بَيْنَهُ ابْنُ يُوسُفَ الْأَنْدَلُسِيِّ

من صور الاحتباك في كتاب الله تعالى:

قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.^٤

قال البقاعي: وفيه إشارة إلى احتباك، فإن ذكر الشهود أولاً يدل على عدمه ثانياً وذكر الإكمال لأجل الغمام ثانياً يدل على الصحو أولاً.^٥

١ - مقاييس اللغة (٢/ ١٣٠)

٢ - الإتيان في علوم القرآن (٣/ ٢٠٤)

٣ - عقود الجمان في علم المعاني والبيان (ص: ١٠٧)

٤ - سورة البقرة: الآية/ ٢١٦

٥ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣/ ٦٤)

وقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾^١.

قال البقاعي: والآية من الاحتباك، ذكر أولاً الإفساد ليدل على حذفه ثانياً وثانياً الإهلاك ليدل على حذفه أولاً، وذكر الحرث الذي هو السبب دلالة على الناسل والنسل الذي هو المسبب دلالة على الزرع فهو احتباك ثان.^٢

وقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^٣.

قال الطاهر ابن عاشور: في الآية احتباك، إذ الكلام على القتال، فتقدير السياق: كتب عليكم القتال وهو كره لكم ومُنْعَمَ منه وهو حُبُّ لكم، وعسى أن تكرهوا القتال وهو خير لكم وعسى أن تحبوه وهو شر لكم.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^٥.

قال الطاهر ابن عاشور: وفي الآية احتباك، فالتقدير: ولهن على الرجال مثل الذي للرجال عليهن، فحذف من الأول دلالة الآخر، وبالعكس.^٦

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^٧.

١ - سورة البقرة: الآية/ ٢٠٥

٢ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣/ ١٧٤)

٣ - سورة البقرة: الآية/ ٢١٦

٤ - التحرير والتنوير (٢/ ٣٢١)

٥ - سورة البقرة: الآية/ ١٨٥

٦ - التحرير والتنوير (٢/ ٣٩٦)

٧ - سورة البقرة: الآية/ ٢٥١

قال الطاهر ابن عاشور: في الآية احتباك، والتقدير: ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض وبقية الموجودات بعضها ببعض لفسدت الأرض أي من على الأرض ولفسد الناس.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.^٢

في الآية احتباك، والتقدير: الشيطان يوسوس لكم بعدم المغفرة من الله تعالى بأن يقنطكم، ويعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء؛ والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، ويأمركم بالعدل والإحسان.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾.^٤

في الآية احتباك، والتقدير: قد كان لكم آية في فئتين، فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان، فحذف لفظ: (مؤمنة) في الأول، وذكر مقابله في الثاني وهو لفظ: (كافرة)، وذكر تقاتل في سبيل الله في الأول، وحذف مقابله في الثاني: تقاتل في سبيل الشيطان.

قال في فتح البيان: وفي الكلام شبه احتباك تقديره: فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان، فحذف من الأول ما يفهم من الثاني، ومن الثاني ما يفهم من الأول.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.^٦

١ - تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير (٢/ ٥٠٣)

٢ - سورة البقرة: الآية/ ٢٦٨

٣ - الفوائد التفسيرية- ضمن آثار المعلمي (٢٤/ ١٢)

٤ - سورة آل عمران: الآية/ ١٣

٥ - فتح البيان في مقاصد القرآن (٢/ ١٩٥)

٦ - سورة آل عمران: الآية/ ٩٢

في الآية احتباك وتقدير الكلام: إن أنفقتم مما تحبون علمه الله سبحانه وتعالى فأنا لكم به البر، وإن تيممتم الخبيث الذي تكرهونه فأنفقتموه لم تبروا، وما تنفقوا من شيء من المحبوب وغيره فإن الله الذي له الإحاطة الكاملة به عليم.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُونا اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.^٢

أي: خلطوا عملاً صالحاً بسيئاً وعملاً آخر سيئاً بصالح، فحذف من الأول سيئاً، ودل عليه ذكره في الموضع الثاني، وحذف من الثاني بصالح ودل عليه ذكره في الموضع الأول.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبَسُونَ﴾.^٣

قال الطاهر ابن عاشور: وفي الكلام احتباك لأن كلا اللبسين هو بتقدير الله تعالى، لأنه حرّمهم التوفيق. فالتقدير: وللبسنا عليهم في شأن الملك فيلبسون على أنفسهم في شأنه كما لبسنا عليهم في شأن محمد صلى الله عليه وسلم إذ يلبسون على أنفسهم في شأنه.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.^٥

قال الطاهر ابن عاشور: وقابل قوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بقوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ مقابلة بالأعم؛ لأن الخير يشمل النفع وهو الملائم ويشمل السلامة من المنافر، للإشارة إلى أن المراد من الضر ما هو أعم، فكأنه قيل: إن يمسسك بضر وشر وإن يمسسك بنفع وخير، ففي الآية احتباك.^٦

١ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢ / ٥)

٢ - سورة التوبة: الآية / ١٠٣

٣ - سورة الأنعام: الآية / ٩

٤ - التحرير والتنوير (١٤٦ / ٧)

٥ - سورة الأنعام: الآية / ١٧

٦ - التحرير والتنوير (١٦٣ / ٧)

ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا كُنُوا عَنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^١.

قال الطاهر ابن عاشور: ففي الكلام احتباك، وتقديره: بل بدا لهم ما كان يبدو لهم في الدنيا فأظهره الآن وكانوا يخفونه. وذلك أنهم كانوا يخطر لهم الإيمان لما يرون من دلائله أو من نصر المؤمنين فيصددهم عنه العناد والحرص على استبقاء السيادة والأنفة من الاعتراف بفضل الرسول وبسبق المؤمنين إلى الخيرات قبلهم، وفيهم ضعفاء القوم وعبيدهم^٢.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهُوَ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^٣.

قال البقاعي: ذكر حال الدنيا وحذف نتيجتها لأهلها لدلالة ثمة الآخرة عليه، وحذف ذكر حال الآخرة لدلالة ذكر حال الدنيا عليه، فهو احتباك^٤.

ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^٥.

قال الطاهر ابن عاشور: في الآية احتباك. والتقدير: فإنهم لا يكذبونك ولا يكذبون الآيات ولكنهم يجحدون بالآيات ويحدون بصدقك، فحذف من كل لدلالة الآخر^٦.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا زَكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^٧.

١ - سورة الأنعام: الآية/ ٢٨

٢ - التحرير والتنوير (١٨٥ / ٧)

٣ - سورة الأنعام: الآية/ ٣٢

٤ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٩٣ / ٧)

٥ - سورة الأنعام: الآية/ ٣٣

٦ - التحرير والتنوير (٢٠٠ / ٧)

٧ - سورة الأنعام: الآية/ ٧١، ٧٢

قال الطاهر ابن عاشور: إن جعلت (أن) فيه تفسيرية فهو من عطف الجمل. فيقدر قوله: أمرنا لنسلم بأمرنا أن أسلموا لنسلم وأن أقيموا الصلاة، أي لنقيم فيكون في الكلام احتباك.^١ ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.^٢

قال الطاهر ابن عاشور: المعنى: والنبات الذي خبث لا يخرج إلا نكدا، ويكون في الكلام احتباك إذ لم يذكر وصف الطيب بعد نبات البلد الطيب، ولم تذكر الأرض الخبيثة قبل ذكر النبات الخبيث، لدلالة كلا الضدين على الآخر. والتقدير: والبلد الطيب يخرج نباته طيبا بإذن ربه، والنبات الذي خبث يخرج نكدا من البلد الخبيث، وهذا صنع دقيق لا يهمل في الكلام البليغ.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.^٤

قال الطاهر ابن عاشور: وقد دل ذكر السقاية والعمارة في جانب المشبه، وذكر من آمن وجاهد في جانب المشبه به، على أن العاملين ومن عملهما لا يساويان العاملين الآخرين ومن عملهما. فوقع احتباك في طرفي التشبيه، أي لا يستوي العاملان مع العاملين ولا عاملوا هذين بعاملين ذينك العاملين. والتقدير: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كالإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله، وجعلتم سقاية الحاج وعمار المسجد كالمؤمنين والمجاهدين في سبيل الله. ولما ذكرت التسوية في قوله: لا يستوون عند الله أسندت إلى ضمير العاملين، دون الأعمال: لأن التسوية لم يشتهر في الكلام تعليقها بالمعاني بل بالذوات.^٥

١ - التحرير والتنوير (٧/ ٣٠٥)

٢ - سورة الأنعام: الآية/ ٥٨

٣ - التحرير والتنوير (٨/ ١٨٦)

٤ - سورة التوبة: الآية/ ١٩

٥ - التحرير والتنوير (١٠/ ١٤٦)

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾^١.

قال في فتح البيان: وفي الكلام شبه احتباك حيث حذف من كل ما أثبتته أو مقابله في الآخر فحذف مظلماً لدلالة مبصراً عليه وحذف لتتحركوا لدلالة لتسكنوا عليه، وهذا أفصح الكلام.^٢

وقال صاحب المنار: وفي هذه الآية احتباك وهو أنه حذف من كل من آتي الليل والنهار ما أثبت مقابله في الأخرى والعكس.^٣

وقال الطاهر ابن عاشور: ولما قابل السكون في جانب الليل بالإبصار في جانب النهار، والليل والنهار ضدان دل ذلك على أن علة السكون عدم الإبصار، وأن الإبصار يقتضي الحركة فكان في الكلام احتباك.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾^٥.

قال الطاهر ابن عاشور: والجمع بين الماضي في (نُجِّيَ) والمضارع في نشاء احتباك تقديره فنجي من شئنا ممن نجا في القرون السالفة وننجي من نشاء في المستقبل من المكذبين.^٦

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^٧.

قال الطاهر ابن عاشور: وبهذا العموم الحاصل بالتذييل والشامل للرسول عليه الصلاة والسلام صار المعنى إنما أنت منذر لقومك هاد إياهم إلى الحق، فإن الإنذار والهدى متلازمان

١ - سورة يونس: الآية/ ٦٧

٢ - فتح البيان في مقاصد القرآن (٦/ ٩٦)

٣ - تفسير المنار (١١/ ٣٧٢)

٤ - التحرير والتنوير (١١/ ٢٢٧)

٥ - سورة يوسف: الآية/ ١١٠

٦ - التحرير والتنوير (١٣/ ٧٠)

٧ - سورة الرعد: الآية/ ٧

فما من إنذار إلا وهو هداية وما من هداية إلا وفيها إنذار، والهداية أعم من الإنذار ففي هذا احتباك بديع.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾.^٢

قال الطاهر ابن عاشور: لما شمل الصلاح الكامل والصلاح المشوب بالتقصير ذيله بوصف الأوابين المفيد بعمومه معنى الرجوع إلى الله، أي الرجوع إلى أمره وما يرضيه، ففهم من الكلام معنى احتباك بطريق المقابلة. والتقدير إن تكونوا صالحين أوابين إلى الله فإنه كان لل صالحين محسنًا وللأوابين غفورًا. وهذا يعم المخاطبين وغيرهم، وبهذا العموم كان تذييلًا.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا هَازِلُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾.^٤

قال الطاهر ابن عاشور: والتقدير: ما منعك أن تتبعني واضطرك إلى أن لا تتبعني، فيكون في الكلام شبه احتباك. والمقصود تأكيد وتشديد التوبيخ بإنكار أن يكون لهارون مانع حينئذ من اللحاق بموسى ومقتض لعدم اللحاق بموسى، كما يقال: وجد السبب وانتفى المانع.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾.^٦

قال الطاهر ابن عاشور: والإتيان بصيغة المستقبل في قوله تعالى: ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ احتباك، والتقدير: فأنجيناهم ومَنْ شئنا وننجي رسولنا ومن نشاء منكم، وهو تأميل لهم أن يؤمنوا؛ لأن من المكذبين يوم نزول هذه الآية من آمنوا فيما بعد إلى يوم فتح مكة.^٧

١ - التحرير والتنوير (٩٥ / ١٣)

٢ - سورة الإسراء: الآية / ٢٥

٣ - التحرير والتنوير (٧٥ / ١٥)

٤ - سورة طه: الآية / ٩٣

٥ - التحرير والتنوير (٢٩٢ / ١٦)

٦ - سورة الأنبياء: الآية / ٩

٧ - التحرير والتنوير (٢١ / ١٧)

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾^١.

قال الطاهر ابن عاشور: في الكلام احتباك كأنه قيل: يحلون بها وحليتهم من أساور من ذهب ولباسهم فيها حرير يلبسونه.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^٣.

قال الألوسي: في الآية صنعة الاحتباك والتقدير: جعلنا الليل مظلمًا ليسكنوا فيه، والنهار مبصرًا لينتشروا فيه.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾^٥.

قال الطاهر ابن عاشور: والمعنى: أي شيء يدريك الساعة بعيدة أو قريبة لعلها تكون قريبًا ولعلها تكون بعيدًا، ففي الكلام احتباك.^٦

ومنه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^٧.

قال الطاهر ابن عاشور: ففي كلتا الجملتين احتباك. والتقدير: وتكلمنا أيديهم فتشهد وتكلمنا أرجلهم فتشهد. ويتعلق بما كانوا يكسبون بكل من فعلي تكلمنا وتشهد على وجه التنازع.^٨

١ - سورة الأنبياء: الآية / ٢٣

٢ - تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير (١٧ / ٢٣٣)

٣ - سورة الأنبياء: الآية / ٨٦

٤ - تفسير الألوسي روح المعاني (١٠ / ٢٣٩)

٥ - سورة الأنبياء: الآية / ٦٣

٦ - التحرير والتنوير (٢٢ / ١١٣)

٧ - سورة الأنبياء: الآية / ٦٥

٨ - التحرير والتنوير (٢٣ / ٥٠)

ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾^١.

في الآية احتباك حيث ذكر المعاقبة أولاً وهي دليل على العزة والنصرة، وحذف ذكر العفو وذكر دليله ثانياً وهو عفو الله تعالى؛ فيكون تقدير الكلام فمن عاقب بمثل ما عوقب به فلما أيده الله بنصره، ومن عفا فهو أولى بعفو الله وإن الله لعفو غفور.

قال البقاعي: ويجوز أن يكون التقدير ندباً إلى العفو بعد ضمان النصر: إن الله لعزیز حكيم، ومن عفا وأصلح فقد تعرض لعفو الله عن تقصيره، ومغفرته لذنوبه، فهو احتباك: ذكر النصر دليل العزة والحكمة، وذكر العفو منه سبحانه دليل حذف العفو من العبد.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ...﴾^٣.

التقدير: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ تدخل غير بيضاء. وأخرجها ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ﴾. فدل لفظ "بيضاء" في الأواخر على عبارة "غير بيضاء" المحذوفة من الأوائل، ودلت عبارة "وأدخل" في الأوائل على عبارة "وأخرجها" المحذوفة من الأواخر، فتم الاحتباك.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^٥.

قال الطاهر ابن عاشور: وفي هذه العاقبة احتباك إذ التقدير: لتنذر من كان حيا فيزداد حياة بامثال الذكر فيفوز ومن كان ميتا فلا ينتفع بالإنذار فيحق عليه القول، كما قال تعالى في أول السورة: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ فَبَشِّرُهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١]، فجمع له بين الإنذار ابتداءً والبشارة آخرًا.^٦

١ - سورة الحج: الآية / ٦٠

٢ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٣ / ٧٩)

٣ - سورة النمل: الآية / ١٢

٤ - البلاغة العربية (٢ / ٥٦)

٥ - سورة يس: الآية / ٧٠

٦ - التحرير والتنوير (٢٣ / ٦٦)

ومنه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^١.

قال الطاهر ابن عاشور: ودلت مقابلة تعليل إيجاد الليل بعلّة سكّون الناس فيه، بإسناد الإبصار إلى ذات النهار على طريقة المجاز العقلي وإنما المبصرون الناس في النهار، على احتباك إذ يفهم من كليهما أن الليل ساكن أيضاً، وأن النهار خلق ليبصر الناس فيه إذ المنّة بهما سواء، فهذا من بديع الإيجاز مع ما فيه من تفنن أسلوبية الحقيقة والمجاز العقلي^٢.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾^٣.

قال الألوسي: وزعم الجلي أن الآية من الاحتباك والأصل يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها فلا يشفقون منها والذين آمنوا مشفقون منها فلا يستعجلون بها^٤.

وقال في فتح البيان: في الآية احتباك حيث ذكر الاستعجال أولاً، وحذف الإشفاق، وذكر الإشفاق ثانياً وحذف الاستعجال^٥.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ لِّلْمُحْسِنِينَ﴾^٦.

قال الطاهر ابن عاشور: وقرأ نافع وابن عامر والبخاري عن ابن كثير ويعقوب لتندر بالمشناة الفوقية خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم فيحصل وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه منذر ووصف كتابه بأنه بشرى وفيه احتباك^٧.

١ - سورة يس: الآية / ٦١

٢ - التحرير والتنوير (٢٤ / ١٨٥)

٣ - سورة الشورى: الآية / ١٨

٤ - تفسير الألوسي روح المعاني (٢٧ / ١٣)

٥ - فتح البيان في مقاصد القرآن (١٢ / ٢٩١)

٦ - سورة الأحقاف: الآية / ١٢

٧ - التحرير والتنوير (٢٦ / ٢٦)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّهُمْ مُسْتَقَرٌّ﴾^١.

قال الطاهر ابن عاشور: هذا إخبار عن حالهم فيما مضى بعد أن أخبر عن حالهم في المستقبل بالشرط الذي في قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾ [القمر: ٢]، ومقابلة ذلك بهذا فيه شبه احتباك كأنه قيل: وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا: سحر، وقد رأوا الآيات وأعرضوا وقالوا: سحر مستمر، وكذبوا واتبعوا أهوائهم وسيكذبون ويتبعون أهواءهم^٢.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾^٣.

قال الطاهر ابن عاشور: قوله: ﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾، جعل استدلالاً منوطاً بإنزال الماء من المزن، على طريقة الكناية بإنزاله، عن تكوينه صالحاً للشراب، لأن إنزاله هو الذي يحصل منه الانتفاع به ولذلك وصف بقوله: الذي تشربون. وأعقب بقوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾، فحصل بين الجملتين احتباك كأنه قيل: أنتم خلقتموه عذبا صالحا للشرب وأنزلتموه من المزن لو نشاء جعلناه أجاجاً ولأمسكناه في سحاباته أو أنزلناه على البحار أو الخلاء فلم تنتفعوا به^٤.

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^٥.

قال الطاهر ابن عاشور: خص المشركون بالذكر هنا إتماما للذين يكرهون إتمام هذا النور، وظهور هذا الدين على جميع الأديان. ويعلم أن غير المشركين يكرهون ظهور هذا الدين لأنهم أرادوا إطفاء نور الدين لأنهم يكرهون ظهور هذا الدين فحصل في الكلام احتباك^٦.

١ - سورة القمر: الآية/ ٣

٢ - التحرير والتنوير (٢٧/ ١٧٢)

٣ - سورة الواقعة: الآية/ ٦٨ - ٧٠

٤ - التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٢٤)

٥ - سورة الصف: الآية/ ٩

٦ - التحرير والتنوير (٢٨/ ١٩٣)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾^{١٠}.

قال الطاهر ابن عاشور: وفي عطف هؤلاء على ثمود وعاد في سياق ذكر التكذيب بالقارعة إيماء إلى أنهم تشابهوا في التكذيب بالقارعة كما تشابهوا في المجيء بالخاطئة وعصيان رسل ربهم، فحصل في الكلام احتباك.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾^٣.

قال الطاهر ابن عاشور: وفي الكلام احتباك لأن الضر يقابله النفع، والرشد يقابله الضلال، فالتقدير: لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا ولا ضلالاً ولا رشداً.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَلَّا بَلًا لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾^٥.

قال الطاهر ابن عاشور: وقد حصل في الآية احتباك لأنهم لما نفى إكرامهم اليتيم وقبول بنفي أن يحضوا على طعام المسكين، علم أنهم لا يحضون على إكرام أيتامهم، أي لا يحضون أولياء الأيتام على ذلك، وعلم أنهم لا يطعمون المساكين من أموالهم.^٦

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾^٧.

١ - سورة الحاقة: الآية / ١٠

٢ - التحرير والتنوير (٢٩ / ١٢٠)

٣ - سورة الجن: الآية / ٢١

٤ - التحرير والتنوير (٢٩ / ٢٤٣)

٥ - سورة الفجر: الآية / (١٨)

٦ - التحرير والتنوير (٣٠ / ٣٣٣)

٧ - سورة القارعة: الآية / ٦ - ٩

في الآية احتباك؛ لأنه حذف من الأول ﴿فَأُمُّهُ الْجَنَّةُ﴾ وذكر فيها ﴿عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ وحذف من الآية الثانية (فهو في عيشة ساخطة) وذكر ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ فحذف من كل نظير ما أثبتته في الآخر، وهو من المحسنات البديعية.^١

قال الزمخشري: قيل هَاوِيَةٌ من أسماء النار، وكأنها النار العميقة لهوي أهل النار فيها مهوى بعيداً، كما روى: "يهوى فيها سبعين خريفاً"؛ أي: فمأواه النار. وقيل للمأوى: أم، على التشبيه، لأنَّ الأم مأوى الولد ومفرغه.^٢

١ - صفوة التفاسير (٣/ ٥٧٠)

٢ - تفسير الكشاف (٤/ ٧٩٠)

الِاتِّفَاتُ

الِاتِّفَاتُ مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ الْبَلَاغِيَّةِ، وَهُوَ أَفْصَحُ فِي الْكَلَامِ، وَأَجْمَلُ فِي الْبَيَانِ، وَأَبْلَغُ فِي النَّظَامِ.

حُدُ الْإِاتِّفَاتِ:

قال الجوهري: اللَّفْتُ: اللَّيُّ. وَلَفَّتَ وَجْهَهُ عَنِي، أَي صَرْفَهُ. وَلَفَّتَهُ عَنْ رَأْيِهِ: صَرْفَهُ. وَتِيسَ أَلَفْتُ بَيْنَ اللَّفَّتِ، إِذَا كَانَ مَلْتَوِي أَحَدَ الْقَرْنَيْنِ عَلَى الْآخَرِ.^١

وَاصْطِلَاحًا: هُوَ نَقْلُ الْكَلَامِ مِنْ أَسْلُوبٍ إِلَى آخَرَ.^٢

وَيَتَنَوَّعُ الْإِاتِّفَاتُ فَيَكُونُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْحُضُورِ، وَمِنَ الْحُضُورِ إِلَى الْغَيْبَةِ، وَمِنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْجَمْعِ، وَعَكْسَهُ.

قال أبو حيان: وَالْإِاتِّفَاتُ مِنَ فَنُونِ الْبَلَاغَةِ، وَهُوَ الْإِاتِّفَاتُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخُطَابِ أَوْ التَّكْلِمْ، وَمِنَ الْخُطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ أَوْ التَّكْلِمْ، وَمِنَ التَّكْلِمْ إِلَى الْغَيْبَةِ أَوْ الْخُطَابِ. وَالْغَيْبَةُ تَارَةٌ تَكُونُ بِالظَّاهِرِ، وَتَارَةٌ بِالْمُضْمَرِ، وَشَرْطُهُ أَنْ يَكُونَ الْمَدْلُولُ وَاحِدًا.^٣

فَائِدَتُهُ:

وفائدته: إظهار الملكة في الكلام، والاقتدار على التصرف فيه.^٤

وتطرية الكلام وصيانة السمع عن الضجر والملال؛ لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات والسآمة من الاستمرار على منوال واحد.^٥

١ - تجديد الصحاح (ص: ٤٧٠٣)

٢ - الإتيان في علوم القرآن (٣ / ٢٨٩)

٣ - البحر المحيط في التفسير (١ / ٤٢)

٤ - البحر المحيط في التفسير (١ / ٤٢)

٥ - الإتيان في علوم القرآن (٣ / ٢٨٩)

شَرَطُ الْإِلْتِفَاتِ:

قال أبو حيان: وشرطه أن يكون المدلول واحداً.^١

وقال الزركشي: شرط الالتفات أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى المنتقل عنه، وشرطه أيضاً أن يكون في جملتين أي: كلامين مستقلين حتى يمتنع بين الشرط وجوابه.^٢

مِثَالُ الْإِلْتِفَاتِ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ:

قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. ف ﴿إِيَّاكَ﴾، التِّفَاتُ لِأَنَّهُ انْتَقَلَ مِنَ الْغَيْبَةِ، لِلخِطَابِ؛ إِذْ لَوْ جَرَى عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ لَكَانَ إِيَّاهُ. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَّتُمْ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾.^٣

الالتفات من الحضور إلى الغيبة؛ فإن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَّتُمْ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾، خطاب للمؤمنين، وقوله: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾. خبر عن الغائبين، ولو جاء على الخطاب لكان تقديره: (فَمِنْكُمْ مَنْ يَقُولُ.....).

قال أبو حيان: وحكمة هذا الالتفات أنهم ما وجهوا بهذا الذي لا ينبغي أن يسلكه عاقل، وهو الاقتصار على الدنيا، فأبرزوا في صورة أنهم غير المخاطبين بذكر الله بأن جعلوا في صورة الغائبين.^٤

١ - البحر المحيط في التفسير (١ / ٤٢)

٢ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٣٣١)

٣ - سورة البقرة: الآية / ٢٠٠

٤ - البحر المحيط في التفسير (٢ / ٣٠٩)

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾.

قيل: الضمير في: ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾، عائدٌ على المخاطبين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾. فيكون في الآية التفتُّ من الخطاب إلى الغيبة. ويكون المعنى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ فإذا فعلتم ذلك لم تقدروا على الانتفاع بشيء مما كسبتم.

ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ﴾^١. في الكلام التفتُّ من الخطاب إلى الغيبة، ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ).

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ﴾. والأصل: (لِيُغْفَرَ لَكَ). في الكلام التفتُّ من الحضور إلى الغيبة، ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفَرَ لَكَ).

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ والأصل: (لَنَا). في الكلام التفتُّ من الحضور إلى الغيبة، ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لَنَا).

ومنه قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾. والأصل: (عَلَيْكُمْ).

في الكلامِ التِّفَاتِ مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ، وَلَوْ جَرَى الْكَلَامُ عَلَى نَسْقٍ وَاحِدٍ لَكَانَ فِي غَيْرِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى: (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْكُمْ).

مِثَالُ الْإِلْتِفَاتِ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْجَمْعِ:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾^١.

في هذه الآية التِّفَاتُ مِنَ الْوَاحِدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ إِلَى الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وَلَوْ جَرَى الْكَلَامُ عَلَى نَسْقٍ وَاحِدٍ لَكَانَ فِي غَيْرِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى: (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِ وَتَرَكَهُ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُ).

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِلْتِفَاتَ أَفْصَحُ فِي الْكَلَامِ، وَأَوْقَعُ فِي نَفْسِ السَّامِعِ، وَأَبْلَغُ فِي النِّظْمِ.

مِثَالُ الْإِلْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكْلُمِ:

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقْنَاهُ﴾.

في هذه الآية التِّفَاتُ مِنَ الْوَاحِدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَرْسَلَ﴾ إِلَى ضَمِيرِ الْجَمْعِ الْمُرَادِ بِهِ التَّعْظِيمُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فُسُقْنَاهُ﴾، وَمِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكْلُمِ أَيْضًا فِي الْكَلِمَتَيْنِ، وَلَوْ جَرَى الْكَلَامُ عَلَى نَسْقٍ وَاحِدٍ لَكَانَ فِي غَيْرِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسَاقَهُ).

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَّا﴾.

في هذه الآية التِّفَاتُ مِنَ الْوَاحِدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْحَى﴾ إِلَى ضَمِيرِ الْجَمْعِ الْمُرَادِ بِهِ التَّعْظِيمُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَزَيْنَّا﴾، وَمِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكْلُمِ أَيْضًا فِي الْكَلِمَتَيْنِ، وَلَوْ جَرَى الْكَلَامُ عَلَى نَسْقٍ وَاحِدٍ لَكَانَ فِي غَيْرِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى: (وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَ).

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

في هذه الآية التِّفَاتُ مِنَ الْغَيْبَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِي أَسْرَى﴾، إِلَى التَّكْلُمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾.

ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِهِ).

وفيهما التفاتٌ آخر من التَّكَلُّمِ في قوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾، إلى العِيبَةِ في قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّنَا..). قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾^١.

في هذه الآية التفاتٌ من الغيبة في قوله: ﴿لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، إلى التَّكَلُّمِ في قوله: ﴿عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾، ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ).

مِثَالُ الْإِلْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾^٢.

في هذه الآية التفاتٌ من الغيبة في قوله: ﴿وَقَالُوا﴾، إلى التَّكَلُّمِ في قوله: ﴿جِئْتُمْ﴾.

ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جَاءُوا شَيْئًا إِدًّا).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ﴾.

في هذه الآية التفاتٌ من الغيبة في قوله: ﴿يَرَوْا﴾، إلى الْخِطَابِ في قوله: ﴿لَكُمْ﴾.

ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَهُمْ).

١ - سورة آل عمران: الآية / ١٧٩

٢ - سورة مريم: الآية / ٨٨

وقوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾.

في هذه الآية التفاتٌ من الغيبة في قوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾، إلى الخطاب في قوله: ﴿لَكُمْ﴾.

ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان في غير كلام الله تعالى: (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَهُمْ جَزَاءً).

التَّضْمِينُ

حُدُّ التَّضْمِينِ:

التَّضْمِينُ لُغَةً: جعل الشيء في ضمن الشيء مشتملاً عليه.^١

وقيل: التَّضْمِينُ: هو إعطاء الشيء معنى الشيء.^٢

واصطلاحاً:

قال الخضري: وهو إشراب الكلمة معنى كلمة أخرى لتفيد المعنيين.^٣

وقال أبو البقاء الكفوي: التضمين هو إشراب معنى فعل لفعل ليعامل معاملته، وبعبارة أخرى هو أن يحمل اللفظ معنى غير الذي يستحقه بغير آلة ظاهرة.

وقال بعضهم: التضمين هو أن يستعمل اللفظ في معناه الأصلي وهو المقصود أصالة لكن قصد تبعيته معنى آخر يناسبه من غير أن يستعمل فيه ذلك اللفظ، أو يقدر له لفظ آخر.

فلا يكون التضمين من باب الكناية ولا من باب الإضمار بل من قبيل الحقيقة التي قصد بمعناه الحقيقي معنى آخر يناسبه ويبتعه في الإرادة.

وقال بعضهم: التضمين إيقاع لفظ موقع غيره لتضمنه معناه.^٤

شرح التعريف:

أن يريد المتكلم أن يستعمل فعلين مُتَقَارِبَيْنِ، أو اسمين، أو حرفين في كلامه، وهذا يقتضي منه أن يصوغَهُمَا في جُمْلَتَيْنِ، ويُعْطِي كُلاً مِنْهُمَا تَعْدِيَةً التي تلائمه، فيعتمد إلى أحدِ الفعلين فيذكرُهُ بلفظه، ثم يأتي بما يتعدى به الفعل الآخر فيذكرُهُ، ولا يذكر الفعل الآخر، فيكون قد ذكر فعلاً واحداً، وحرفاً يتعدى به الفعل الآخر ليدل عليه ويشير إليه، فيكون الفعل الأول

١ - التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ١٨١)

٢ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٣٣٨)

٣ - حاشية الخضري على ابن عقيل (١ / ٢٣)

٤ - كتاب الكليات (ص: ٤٠٤)

قد أشرب معنى الفعل الثاني، وتضمنه في طياته، وإنما فعل ذلك طلباً للاختصار، فيكون بذلك قد استغنى بجملة واحدة عن جملتين، وهو مع ذلك يريد ارتقاءً في الأسلوب، وجمالاً في البيان، وإعمالاً لذهن المتلقي.

والتضمين أسلوبٌ رائعٌ من أساليب البلاغة، وفنٌ رفيعٌ من فنون البيان.

قال الدكتور محمد فاضل: والتضمين من أنزه الفصول في العربية، فإذا تأملته عرفت منه وبه ما لحروف المعاني من أسرار يكشفها لك، ويظهر فيها مزية... ترى الحرف مع فعل أو مشتق لم يألفه، فيوحشك الحرف، فلولا معازة خاطر في هذه الحروف وماورة الفكر واكتداده لكنت منها على حرد، وعنهما لمعزل، وبأمر سوها في شغل.^١

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: والعرب تضمن الفعل معنى الفعل وتعديه تعديته ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض كما يقولون في قوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ﴾؛ أي: مع نعاجه و ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: مع الله ونحو ذلك والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمين فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه وكذلك قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، ضَمَّنَ معنى: يزيغونك ويصدونك وكذلك قوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، ضَمَّنَ معنى نجيناه وخلصناه وكذلك قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾، ضَمَّنَ يروى بها ونظائره كثيرة.^٢

والتضمين تارة يكون في الأسماء وفي الأفعال وفي الحروف.^٣

التَّضْمِينُ بَيْنَ الْكُوفِيِّينَ وَالْبَصْرِيِّينَ:

ذهب الكوفيون إلى أن حروف الجر تتناوب، وأنه لا تضمين في الكلام، فيقولون مثلاً في قول الله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾؛ أي: يشرب منها، والباء هنا بمعنى: (من). ويقولون في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ﴾؛ أي: إلى هنا بمعنى: مع؛ أي: مع نعاجه.

١ - التضمين النحوي في القرآن (١٠ / ١)

٢ - مجموع الفتاوى (٣٤٢ / ١٣)

٣ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٣٣٨)

ويقولون في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَفْلَحْتَ سَحَابًا ثِقَالًا سُفِّنَاهُ لِيَلْدَ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، الباء هنا بمعنى: من؛ أي: فأنزلنا منه الماء.

وذهب البصريون إلى القول بالتضمن، وهو إشراب الكلمة معنى كلمة أخرى، والتحقيق ما قاله البصريون؛ فإن القول بالتضمن فيه معنى زائد، وحمل الكلام على التأسيس أولى؛ لما فيه من زيادة المعنى، بخلاف قول الكوفيين الذين قالوا بتناوب الحروف.

التَّضْمِينُ فِي الْأَسْمَاءِ:

التَّضْمِينُ فِي الْأَسْمَاءِ هُوَ: أَنْ تَضْمَنَ اسْمًا مَعْنَى اسْمٍ لِإِفَادَةِ مَعْنَى الْأَسْمَاءِ جَمِيعًا.

أُمثلةٌ عَلَى التَّضْمِينِ فِي الْأَسْمَاءِ:

قول الله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾^١.

الأصل أن الرَّفَثَ لَا يُعَدِّي بِإِلَى، فَلَا يُقَالُ رَفَثٌ إِلَى كَذَا، وَهنا عُدِّيَ ﴿الرَّفَثُ﴾ بِـ ﴿إِلَى﴾ لِتَضْمُنِهِ مَعْنَى الْإِفْضَاءِ.

وقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾^٢.

ضُمِّنَ ﴿حَقِيقٌ﴾ مَعْنَى: حَرِيصٌ لِيُفِيدَ أَنَّهُ مُحَقِّقٌ بِقَوْلِ الْحَقِّ وَحَرِيصٌ عَلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا﴾^٣.

ضَمِنَ: ﴿خَفِيٌّ﴾ مَعْنَى كَاشِفٌ؛ وَالتَّقْدِيرُ: كَأَنَّكَ كَاشِفٌ بِخَفَاوَتِكَ عَنْهَا.^٤

١ - سورة البقرة: الآية / ١٨٧

٢ - سورة الأعراف: الآية / ١٠٥

٣ - سورة الأعراف: الآية / ١٨٧

٤ - دراسات لأسلوب القرآن الكريم (٢ / ١٩٩)

التَّضْمِينُ فِي الْحُرُوفِ:

أمثلة على التَّضْمِينِ فِي الْحُرُوفِ:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾^١.

فإن أصل قوله تعالى: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ في ماذا كنتم، وسؤال الملائكة عن مكانهم الذي كانوا فيه، بدليل قول الملائكة لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾، والسؤال عن المكان يكون بـ (أين) وليس بـ ﴿فِيمَ﴾، وإنما قالت الملائكة: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾؛ لتضمن الكلام معنى الإنغماس في قاذورات الشرك ونجاسات الكفر، بسبب مخالطتهم للمشركين.

قال ابن كثير: في قوله تعالى: ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: لم مكنتم هاهنا وتركتم الهجرة؟ ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض.^٢

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^٣.

ضمن الباء معنى (من)، في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، فيكون المعنى فأنزلنا منه الماء، والضمير في به عائد على السحاب.

وقوله تعالى: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾^٤.

أي على لسان رجل. وقيل ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى (مع)، وقيل: لا حذف ولا تضمين في الحرف بل هو على ظاهره؛ لأن ﴿جَاءَكُمْ﴾ بمعنى: نزل إليكم.^٥

١ - سورة النساء: الآية/ ٩٧

٢ - تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٩)

٣ - سورة الأعراف: الآية/ ٥٧

٤ - سورة الأعراف: الآية/ ٦٣

٥ - البحر المحيط (٤: ٣٢٢)

التَّضْمِينُ فِي الْأَفْعَالِ:

التَّضْمِينُ فِي الْأَفْعَالِ هُوَ: أَنْ تُضْمِنَ فِعْلاً مَعْنَى فِعْلٍ آخَرَ، فَيَأْخُذُ حُكْمَهُ تَعْدِيًّا وَلِزُومًا، وَيَكُونُ فِيهِ مَعْنَى الْفِعْلَيْنِ جَمِيعًا.

وذلك بأن يَكُونَ الْفِعْلُ لَازِمًا فَيَأْتِي مُتَعَدِّيًا، والأصل فيه اللزوم، أو يَكُونَ الْفِعْلُ مُتَعَدِّيًا بِحَرْفٍ، فَيَأْتِي مُتَعَدِّيًا بِحَرْفٍ آخَرَ لَيْسَ مِنْ عَادَتِهِ التَّعْدِي بِهِ.

أمثلة على التضمين في الأفعال:

قول الله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^١.

تَعَدَّى الْفِعْلُ (هَدَى) مِنْ قَوْلِهِ: ﴿اهْدِنَا﴾ بِنَفْسِهِ فَضُمِّنَ مَعْنَى أَهْمَنَّا، أَوْ وَفَّقْنَا، أَوْ ارْزُقْنَا، والأغلب أن يَتَعَدَّى بِإِلَى، كقوله تعالى: ﴿اجْتَنِبْهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^٢.

وكما في قوله: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾^٣.

واهْدَى هُنَا مَعْنَاهُ الْإِرْشَادُ وَالِدَّلَالَةُ، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^٤.

أي ترشد الناس وتدهم عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾^٥.

الأصل أن الفعل يسارع يتعدي بـ (إلى) كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^٦.

١ - سورة الفاتحة: الآية/ ٦

٢ - سورة النحل: الآية/ ١٢١

٣ - سورة الصافات: الآية/ ٢٣

٤ - سورة الشورى: الآية/ ٥٢

٥ - سورة المائدة: الآية/ ٥٢

٦ - سورة آل عمران: الآية/ ١٣٣

وإنما عدي الفعل ﴿يُسَارِعُونَ﴾ بـ ﴿فِيهِمْ﴾؛ لتضمنه معنى الدخول، فيكون معنى الكلام فترى المنافقين الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِي الدخول أي: فترى المنافقين الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يبادرون فِي الدخول فِي أحلاف اليهود والنصارى، مناصرين لهم، ومتعززين بهم خوفاً من أن تدور الدائرة عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.^١

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.^٢

الأصل أن الفعل: ﴿تَطَوَّعَ﴾، يتعدى بالباء، يقال: تَطَوَّعَ بصدقة.

وهنا تعدى بنفسه، فتضمن معنى: فَعَلَ أو أَتَى.

وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.^٣

ضمّن الفعل: ﴿يَشْرَبُ﴾، معنى يَرَوِي وَيَتَلَذَّذُ لَأنَّه فِي الأصل لَا يَتَعَدَّى بِالْبَاءِ، فَلِذَلِكَ دَخَلَتِ الْبَاءُ وَإِلَّا فـ ﴿يَشْرَبُ﴾ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ فَأُرِيدَ بِاللَّفْظِ الشُّرْبُ وَالرَّيُّ مَعَ التَّلَذُّذِ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾.^٤

ضمّن الفعل: ﴿خَلَوْا﴾ معنى: انصرفوا وذهبوا وخلصوا؛ لتعديه بـ (إِلَى)، لِيَدُلَّ عَلَى الْفِعْلِ الْمَضْمَرِ وَالْفِعْلِ الْمَلْفُوظِ بِهِ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى إِذَا انصرفوا وخلصوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا: إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾.^٥

١ - سورة البقرة: الآية / ١٥٨

٢ - سورة البقرة: الآية / ١٨٤

٣ - سورة الإنسان: الآية / ٦

٤ - سورة البقرة: الآية / ١٤

٥ - سورة النازعات: الآية / ١٨

ضَمِّنَ الْكَلَامَ مَعْنَى الدُّعَاءِ، لِأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ إِنَّمَا يُقَالُ: هَلْ لَكَ فِي كَذَا؟ كَمَا قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لَكَ فِي بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ؟^١

والمعنى: أدعوك إلى أن تزكى.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^٢.

فالضمير في قوله ﴿عَنْ أَمْرِهِ﴾، راجع إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو إلى الله تعالى، ولا منافاة، لأن الأمر لله تعالى في الحقيقة، والرسول مبلغ عن الله، وهو المقصود هنا.

قال الراغب: والمخالفة أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو قوله.^٣ والأكثر أن يتعدي الفعل (يُخَالِفُ) بنفسه فيقال: (زَيْدٌ يُخَالِفُ عَمراً)، فإذا تعدي بعن ضَمِّنَ معنى الإعراض كما في هذه الآية: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾؛ ضَمِّنَ معنى الإعراض لتعديهِ بـ ﴿عَنْ﴾، والمعنى فليحذر الذين يخالفون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معرضين عن أمرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾^٤.

عدى الفعل ﴿يَقْبَلُ﴾ بحرف الجرّ ﴿عَنْ﴾، مع أن الأصل في الاستعمال أن يعدى بحرف الجرّ «مِنْ» كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^٥.

١ - رواه البخاري- كتاب النكاح، باب ﴿وَرَبَائِكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾، حديث رقم:

٥١٠٦، ومسلم- كتاب الرضاع، باب تحريم الربيبة، وأخت المرأة، حديث رقم: ١٤٤٩

٢ - سورة النور: الآية/ ٦٣

٣ - المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٩٤)

٤ - سورة التوبة: الآية/ ١٠٤

٥ - سورة البقرة: الآية/ ١٢٧

وكما في قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^١.

والعلة أن الفعل ﴿يَقْبَلُ﴾ ضمن معنى التحمل أو التجاوز، ويكون المعنى: أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مَتَحَمُّلاً أَوْ مَتَجَاوِزاً عَنْ عِبَادِهِ.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾^٢.

الأصل في الفعل (يريد) أنه لا يتعدى بالباء، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾^٣.

وكما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزًّا فِي الْآخِرَةِ﴾^٤.

وهنا تعدي الفعل ﴿يُرِدُ﴾ بالباء لأنه ضَمَّنَ مَعْنَى (يَهْمُ)، أي: مَنْ يَهْمُ فِيهِ بِأَمْرٍ مُحَرَّمٍ مِنَ الْمَعَاصِي نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾^٥.

قد يَتَعَدَّى الفعل هدى بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. فَيُضَمَّنُ معنى: أَهْلِمْنَا، أَوْ وَفَّقْنَا، أَوْ ارزُقْنَا، وقد تقدم الكلام على هذه الآية.

وكما في قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^٦.

أي: بَيَّنَّا لَهُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ.

وقد يَتَعَدَّى بـ (إلى)؛ كقوله تعالى: ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^٧.

١ - سورة آل عمران: الآية / ٣٥

٢ - سورة الحج: الآية / ٢٥

٣ - سورة التوبة: الآية / ٨٥

٤ - سورة آل عمران: الآية / ١٧٦

٥ - سورة الروم: الآية / ٥٣

٦ - سورة البلد: الآية / ١٠

٧ - سورة النحل: الآية / ١٢١

وكما في قوله: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾.^١

وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.^٢

وَقَدْ يَتَعَدَّى بِاللَّامِ، كَقَوْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾.^٣

أَي: وَقَفَقْنَا لِهَذَا وَاجْعَلْنَا لَهُ أَهْلًا.

وهنا تعدى اسم الفاعل: ﴿يَهَادِ﴾ بحرف الجر ﴿عَنْ﴾، فضمّن الفعل «هدى» معنى صرف، أو أبعد، إشارة إلى أنهم عاكفون على الضلال، لا يتحولون عنه أبدًا، ولا يتجاوزون حدوده، والمعنى: وما أنت بصارفٍ العمي عن ضلالتهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾.^٤

الفعل سأل يتعدى بنفسه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾.^٥

ويتعدى ب (عن)؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلُوهُمْ عَنِ الْقُرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾.^٦

فإذا تعدى ب (إلى) كما في هذه الآية دل على أنه ضَمَّنَ معنى فعل آخر وهو ضم أو جمع ويكون المعنى: لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِهِ إِيَّاكَ أَنْ تَضْمَنَ نَعَجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.^٧

وقوله تعالى: ﴿كَمَآ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.^٨

ضمن الفعل (ينصر) معنى الفعل (يضم) فيكون المعنى من يضمون نصرهم لي إلى نصر الله تعالى لي، فيكون سببًا في حُصُولِ النَّصْرِ الذي وعدنيه الله تعالى.

١ - سورة الصافات: الآية / ٢٣

٢ - سورة الشورى: الآية / ٥٢

٣ - سورة الأعراف: الآية / ٤٣

٤ - سورة ص: الآية / ٢٤

٥ - سورة النساء: الآية / ٣٢

٦ - سورة الأعراف: الآية / ١٦٣

٧ - سورة آل عمران: الآية / ٥٢

٨ - سورة الصف: الآية / ١٤

قال الطاهر بن عاشور: ووصل وصف أنصاري بإلى إما على تضمين صفة أنصار معنى الضم أي من ضامون نصرهم إياي إلى نصر الله إياي، الذي وعدني به إذ لا بد لحصول النصر من تحصيل سببه.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾.^٢

ضمن الفعل (نصر) من قوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ﴾، معنى الفعل نَجَّى وَخَلَّصَ، فيكون المعنى، ونصرناه فنجيناه وخلصناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.^٣

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾.^٤

الأصل أن الفعل ﴿كَفَى﴾ لا يتعدى بالباء إنما يتعدي بنفسه، قال الله تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.^٥

قال ابن الزملاكي: وكفى من كفيته الشيء ولم يجيء للعرب كفيته بالشيء فجعل بين الفعلين الفعل المذكور وهو متعد وخص من الفعل اللازم وهو اكتفيت به بالباء وكذلك انتصب ﴿شَهِيدًا﴾، على التمييز أو الحال، كأنه قيل: كفى بالله فاكتف به فاجتمع فيه الخبر والأمر.^٦

وقال الزجاج: دخلت لتضمن ﴿كَفَى﴾ معنى: اكتفى وهو حسن.^٧

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.^٨

١ - التحرير والتنوير (٣/ ٢٥٥)

٢ - سورة الأنبياء: الآية/ ٧٧

٣ - سورة النساء: الآية/ ١٦٦

٤ - سورة الأنبياء: الآية/ ٤٧

٥ - سورة الأحزاب: الآية/ ٢٥

٦ - البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣٨٧)

٧ - البرهان في علوم القرآن (٣/ ٨٣)

٨ - سورة البقرة: الآية/ ١٩٥

الفعل ﴿تُلْقُوا﴾ يتعدى بنفسه بدليل قول الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾^١.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾^٢.

وهنا تعدى بالباء لأنه ضُمِّن معنى: (تفضوا)، فيكون المعنى: ولا تُلْقُوا أنفسكم مفضيين بها إلى التَّهْلُكَةِ بأيديكم.

ومنه قوله تعالى: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾^٣.

ضُمِّن الفعل ﴿ضُرِبَ﴾، في الآية من قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾، معنى: يحجز؛ فيكون تقدير الكلام: فضرِب بسور يحجز بينهم.

قال الطاهر بن عاشور: وضمن فضرِب في الآية معنى الحجز فعدي بالباء، أي ضرب بينهم سور للحجز به بين المنافقين والمؤمنين، خلقه الله ساعتئذٍ قطعاً لأطماعهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، فحق بذلك التمثيل الذي مثل الله به حالهم في الدنيا بقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].^٤

وأنَّ الحيرةَ وعدمَ رؤيةِ المصيرِ عذابٌ أليمٌ.

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُهُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا وَقَطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَيْنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَئِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأُنْفَى﴾^٥.

١ - سورة ق: الآية / ٧

٢ - سورة القصص: الآية / ٧

٣ - سورة الحديد: الآية / ١٣

٤ - تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٨٣)

٥ - سورة طه: الآية / ٧١

ضُمِّنَ الفعل: ﴿لَأَصْلِبَنَّكُمْ﴾، من قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ﴾ معنى الفعل: (لَأُثَبِّتَنَّكُمْ)، فإن الفعل ﴿لَأَصْلِبَنَّكُمْ﴾، يتعدى بحرف الجرّ "على"، ولا يتعدى بـ "في"، ولما كان مراد فرعون المبالغة في شدهم على جُدُوعِ النَّحْلِ، وتثبيبتهم فيها بالمسامير التي تَدْخُلُ في الجذوع، شَبَّهَ تَمَكُّنَهُمْ على الجُدُوعِ بِتَمَكُّنِ مَنْ حَوَاهِ الْجَذُّ واشتمل عليه، وكانت التعدية بحرف الجرّ "في" دليلاً على الفعل المحذوف (لَأُثَبِّتَنَّكُمْ).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾.^١

الأصل في الفعل ﴿أَحْسَنَ﴾، أن يتعدي بـ (إلى)، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.^٢

وهنا عُذِّي الفعل ﴿أَحْسَنَ﴾ بـ (الباء) فَضُمِّنَ معنى: لَطَفَ، فيكون المعنى: وقد لَطَفَ اللَّهُ بي من كمال إحسانه عندما أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.^٣

فإنَّ الأصل أن يتعدي الفعل: (أَحْسِنْ)، بإلى كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.^٤

وإنما عدي الفعل: (أَحْسِنْ) من اللفظ المقدر (وَأَحْسِنُوا) بـ (بالباء) لتضمنه معنى الرفق، واللطف، فيكون المعنى: وَأَحْسِنُوا لِلْوَالِدَيْنِ وَارْفُقُوا وتلطّفُوا بهما.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾.^٥

فإنَّ الأصل في الفعل: (رَغِبَ) أن يَتَعَدَّى بـ (في) يقال: رَغِبَ في الشَّيْءِ، إذا أَرَادَهُ وحرَصَ عليه وطمع فيه وأحَبَّهُ، ويقال: رَغِبَ في الزواج، إذا أَرَادَهُ، ورَغِبَ في فلانة: أَرَادَ الزَّوْاجَ منها.

١ - سورة يوسف: الآية / ١٠٠

٢ - سورة القصص: الآية / ٧٧

٣ - سورة النساء: الآية / ٣٦

٤ - سورة القصص: الآية / ٧٧

٥ - سورة البقرة: الآية / ١٣٠

فلما عدي الفعل: ﴿يَزْعَبُ﴾ بـ ﴿عَنْ﴾ في قوله: ﴿وَمَنْ يَزْعَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾، ضُمِّنَ مَعْنَى الكره والإعراض عن الشيء والعُدُول عنه.

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: والرغبة طلب أمر محبوب، فحق فعلها أن يتعدى بفي وقد يعدى بعن إذا ضمن معنى العدول عن أمر وكثر هذا التضمين في الكلام حتى صار منسياً.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَزْعَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾.^٢

ضمن الفعل ﴿سَفِهَ﴾، معنى جهل، أو أهلك، وعدي تعديّة الفعل: (سَفَّه)، كأنه قيل: جهل نفسه لخفة عقله أي لم يعرفها بالتفكير، أو أهلك نفسه بعدم اتباعه لخير الملل وأزكاها، ملة إبراهيم وأعرض وتركها رغبةً عنها إلى غيرها.

قال أبو حيان رحمه الله: ضُمِّنَ معنى ما يتعدى، أي جهل، وهو قول الزجاج وابن جني، أو أهلك، وهو قول أبي عبيدة.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿لَتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾.^٤

عدي ﴿لَتُكَبِّرُوا﴾ بـ (على) لأنه ضُمِّنَ معنى: الشُّكْر؛ أي: لتكبروا الله تعالى شكرًا له على ما هداكم.

أي: أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه، لأن تقولوا الله أكبر على ما هدانا، والحمد لله على ما أولانا، فاختصر الكلام بأن ضُمِّنَ التكبير معنى الشُّكْر وعدي تعديته.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.^٦

١ - التحرير والتنوير (١/ ٧٢٥)

٢ - سورة البقرة: الآية / ١٣٠

٣ - البحر المحيط في التفسير (١/ ٦٢٨)

٤ - سورة الحج: الآية / ٣٧

٥ - السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٢/ ٥٥٤)

٦ - سورة الأعراف: الآية / ١٢

ضمن الفعل: (مَنَعَ) من قوله تعالى: ﴿مَنَعَكَ﴾ معنى فعل آخر تقديره: ما أحوجك وألزمك واضطرك ألا تسجد إذ أمرتك.^١

قال ابن جرير معناه: ما منعك من السجود فأحوجك ألا تسجد فترك ذكر أحوجك، استغناء بمعرفة السامعين.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُوهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾.^٣

عدي الفعل: يدعو من ﴿سَتُدْعُونَ﴾. بحرف الجر: ﴿إِلَى﴾، لتضمينه معنى المشي، والمعنى: سَتُدْعُونَ للزحف إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُوهُمْ إِلَى أَنْ يُسْلِمُوا.

قال الطاهر ابن عاشور: وعدي فعل استدعون بحرف إلى لإفادة أنها مضمنة معنى المشي، وهذا فرق دقيق بين تعدية فعل الدعوة بحرف إلى وبين تعديته باللام نحو قولك: دعوت فلاناً لما نابي، قال طرفة:

وإن أدعَ للجُلَى أكن من حُمَاهَا *****

ومنه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ.....﴾.^٤

ضَمَّنَ الْفِعْلُ: ﴿اسْتَبَقَا﴾ مَعْنَى (ابْتَدَرَا)؛ لَأَنَّهُ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ فَيَكُونُ الْمَعْنَى: (ابْتَدَرَا) (الباب).^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿لِتَكْبِرُوا لِلَّهِ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾.^٦

عدي ﴿لِتَكْبِرُوا﴾ بـ (على) لَأَنَّهُ ضَمَّنَ مَعْنَى الشُّكْرِ؛ أَي: لتكبروا الله تعالى شكراً له على ما هداكم.

١ - تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٢)

٢ - تفسير الطبري (١٠/ ٨٤)

٣ - سورة الفتح: الآية/ ١٦

٤ - التحرير والتنوير (٢٦/ ١٧١)

٥ - سورة يوسف: الآية/ ٢٥

٦ - انظر تفسير البضاوي (٣/ ١٦٠)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٢)

٧ - سورة الحج: الآية/ ٣٧

أي: أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه، لأن تقولوا الله أكبر على ما هدانا، والحمد لله على ما أولانا، فاختصر الكلام بأن ضَمَّنَ التكبير معنى الشُّكْرِ وعدِّي تعديته.^١
ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.^٢
ضَمَّنَ ﴿تَأْكُلُوا﴾ مَعْنَى الضَّمِّ، فعدي ب: (إلى)، وتقدير الكلام: وَلَا تَضُمُّوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ آكِلِينَ لَهَا.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾.^٣
وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.^٤
في الموضع الأول ضَمَّنَ الفعل (خلا) معنى الرجوع، فعدي تعديته، والتقدير: فإذا خَلَوْا من جماعة المؤمنين ورجعوا إلى شياطينهم من اليهود أو قَادَتْهم من المشركين قالوا لهم: إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ.

وفي الموضع الثاني ضَمَّنَ الفعل (خلا) معنى انضوى، أو استكان لذلك عُدِّي بحرف (إلى)، فيكون المعنى: (وإذا خلا بعضهم منضوين إلى بعض، ومستكينين إلى بعض قالوا.....).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ.....﴾.^٥
قال أبو حيان: قَضَى يتعدى بنفسه إلى مَفْعُولٍ كقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩]، ولما ضمن هنا معنى الإيحاء أو الإنفاذ تعدى ب (إلى) أي: وأوحينا أو أنفذنا إلى بني إسرائيل في القضاء المحتوم المبتوت.^٦

١ - السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٢/ ٥٥٤)

٢ - سورة النساء: الآية/ ٢

٣ - سورة البقرة: الآية/ ١٤

٤ - سورة البقرة: الآية/ ٧٦

٥ - سورة الإسراء: الآية/ ٤

٦ - البحر المحيط في التفسير (٧/ ١٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾^١.
عُدِّي الفعلُ نَجَّى من قوله: ﴿وَنَجِّنَاهُ﴾، بـ (إلى)، والأصل أن يعدى بحرف الجر: (من)؛ كما
في قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾. [الأنبياء: ٨٨]؛ لأنه ضمن معنى (أخرجناه) بنجاتنا إلى
الأرض.

التَّغْلِيْبُ

حُدُّ التَّغْلِيْبِ:

التَّغْلِيْبُ لُغَةً: إِيرَادُ اللَّفْظِ الْغَالِبِ.^١

وقيل: هو إعطاء الشيء حُكْمَ غيره.

واصطلاحًا: هو ترجيح أحد المعلومين على الآخر وإطلاقه عليهما، وقيدوا إطلاقه عليهما للاحتراز عن المشاكلة.^٢

وقيل: هُوَ أَنْ يَغْلِبَ عَلَى الشَّيْءِ مَا لغيره لتناسب بينهما أو اختلاط.^٣

والتَّغْلِيْبُ مِنْ أَسَالِيبِ الْعَرَبِ فِي كَلَامِهِمْ فَمِنْ الْعَرَبِ مَنْ يُجْرِي الْمُخْتَلَفَيْنِ مَجْرَى الْمُتَّفَقَيْنِ، فَيَغْلِبُ أَحَدَهُمَا عَلَى الْآخَرِ لِحَقِّقَتِهِ أَوْ شُهْرَتِهِ، وَمِثَالُ التَّغْلِيْبِ: قَوْلُهُمْ فِي تَثْنِيَةِ الْأَبِ وَالْأُمِّ: أَبَوَانِ، وَفِي تَثْنِيَةِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ: الْمَشْرِقَانِ وَفِي تَثْنِيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ: الْقَمَرَانِ، غَلَّبُوا الْقَمَرَ عَلَى الشَّمْسِ لِحَقِّقَةِ التَّذْكِيرِ، وَفِي تَثْنِيَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ: الْمَلَوَانِ، وَفِي تَثْنِيَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الْعَمْرَانِ، غَلَّبُوا عُمَرَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لِحَقِّقَةِ اسْمِهِ؛ وَقِيلَ: لِأَنَّ أَيَّامَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ امْتَدَّتْ فَاشْتَهَرَتْ.

قال الفرزدق:

أَخَذْنَا بِأَفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ ***** لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُ

فائدة: أحيانا يُرَاعَى فِي التَّغْلِيْبِ الْأَشْرَفُ وَأحيانا يُرَاعَى الْأَكْثَرُ، وَأحيانا يُرَاعَى الْأَشْهُرُ، وَأحيانا يُرَاعَى الْأَخْفُ.

١ - الكليات (ص: ٢٨١)

٢ - التعريفات (ص: ٦٣)

٣ - الكليات (ص: ٢٨١)

أَمْثَلُهُ التَّغْلِيْبُ:

١- تَغْلِيْبُ الْعَاقِلِ عَلَى غَيْرِ الْعَاقِلِ.

ومعناه أَنْ يَشْتَمِلَ الْكَلَامُ عَلَى مَنْ يَعْقِلُ وَمَنْ لَا يَعْقِلُ فَيُطْلَقُ اللَّفْظُ الْمُخْتَصُّ بِالْعَاقِلِ عَلَى الْجَمِيعِ.

مثاله قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^١.

الْأَرْضُ فِيهَا الْعَاقِلُ وَغَيْرُ الْعَاقِلِ، وَالْعَاقِلُ يشار إليه بـ (مَنْ)، وَغَيْرُ الْعَاقِلِ يشار إليه بـ (مَا)، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ غَلَّبَ الْعَاقِلُ لَشَرْفِهِ حَيْثُ أَتَى بـ ﴿مَنْ﴾، عَلَى غَيْرِ الْعَاقِلِ.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٢.

قوله تعالى: ﴿كُلَّ دَابَّةٍ﴾، عام يشمل من يعقل ومن لا يعقل، فُغْلِبَ مَنْ يَعْقِلُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى.....﴾. وذلك لشرفِ الْعَاقِلِ عَلَى غَيْرِ الْعَاقِلِ.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^٣.

قال العلماء: علَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ لِمَا يَعْقِلُ، مَعَ أَنَّ الْكَلَامَ إِخْبَارٌ عَمَّا يَعْقِلُ وَمَا لَا يَعْقِلُ فَعَبَّرَ عَنِ الْجَمِيعِ بِصِيغَةٍ مِنْ يَعْقِلُ لِلتَّغْلِيْبِ لِشَرْفِ الْعَاقِلِ عَلَى غَيْرِ الْعَاقِلِ.

قال ابن كثير: واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وهذا عبارة عما يعقل. وهذا الذي رجح به ليس بلازم، فإنه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم، ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب؛ كما قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ

١ - سورة المؤمنون: الآية/ ٨٤

٢ - سورة النور: الآية/ ٤٥

٣ - سورة البقرة: الآية/ ٣١

مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿النور: ٤٥﴾^١.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَاشٍ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾^٢.

يحمل ذلك على الإماء والعبيد، وعلى الدواب والأنعام، وعلى الوحش والطير، وإنما أطلق عليها صيغة مَنْ تغليباً لجانب العقلاء على غيرهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾^٣.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾؛ أي: كل من على الأرض من حيوان وإنما ذكره بلفظة: ﴿مَنْ﴾ تغليباً لجانب العقلاء على غيرهم، فإن كل مخلوق هالك لأن وجود الإنسان في الدنيا عرض فهو غير باق وما ليس بباق فهو فان.

٢- تَغْلِيْبُ غَيْرِ الْعَاقِلِ عَلَى الْعَاقِلِ.

مثاله قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^٤.

يَسْجُدُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْعَاقِلُ وَغَيْرِ الْعَاقِلِ، فَغَلَّبَ غَيْرَ الْعَاقِلِ حَيْثُ أَتَى بِـ ﴿مَا﴾ الذي يدل على غير العاقل لكثرتة.

ومنه قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٥.

فَغَلَّبَ غَيْرَ الْعَاقِلِ حَيْثُ أَتَى بلفظ (مَا) فقال: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ الذي يدل على غير العاقل ولم يقل: (وَمَنْ فِيهِنَّ)؛ لأنَّ كلمة (مَا) تتناول الأجناس كلها تناولاً عاماً بأصل الوضع

١ - تفسير ابن كثير (١/ ٢٢٣)

٢ - سورة الحجر: الآية/ ٢٠

٣ - سورة الرحمن: الآية/ ٢٦

٤ - سورة النحل: الآية/ ٤٩

٥ - سورة المائدة: الآية/ ١٢٠

والحديث هنا عن أجناس المخلوقات، وَ (مَنْ) لا تتناول غير العقلاء بأصل الوضع فكان استعمال (مَا) هنا أولى.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾.^٢

غَلَبَ غير العاقلِ حيثُ أتى بلفظ: (مَا) الذي يدل على غير العاقلِ ولم يأت بلفظ: (مَنْ) الذي يدل على العاقلِ؛ لأنَّ كلمة: (مَا) تتناول الأجناس كلها، والحديث هنا عن أجناس المخلوقات، وَ (مَنْ) لا تتناول غير العقلاء فكان استعمالُ (مَا) هنا أولى كذلك.

٣- تَغْلِيْبُ الْأَشْهَرِ.

مثاله قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾.^٣

أراد المشرق والمغرب، فغلب ذكر المشرق لأنه أشهر الجهتين، ولأنَّ المشرق دالٌّ على الوجود والمغرب دالٌّ على العدم، والوجود أشرف من العدم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾.^٤

أي المالح والعذب، والبحرُ خاصٌّ بالمالح، والعذب خاص باليم والنهر، فَعَلَبَ البحرَ لِأَنَّهُ الْأَشْهَرُ ولكونه الأعظم.

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾.^٥

فإنَّ إسماعِيلَ عليه السلام عُمُّ يَعْقُوبَ عليه السلام وإنما سموه أَبًا له مِنْ بَابِ التَّغْلِيْبِ، فإن الأب أقرب وأشهر في الذكر من العم.

١ - البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣٠٧)

٢ - سورة البقرة: الآية/ ١١٦

٣ - سورة الزخرف: الآية/ ٣٨

٤ - سورة الفرقان: الآية/ ٥٣

٥ - سورة البقرة: الآية/ ١٣٣

٤ - تَغْلِيْبُ الْمَذْكُرِ عَلَى الْمَوْثِ.

مثاله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِطِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾^١.
والمراد بالإخوة الإخوة والأخوات فذكر لفظ: ﴿إِخْوَةً﴾، تغليبا لحكم للمذكر على المؤنث.
ومثاله قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا ذِكْرٌ وَإِسْمٌ خَالِدٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ذَلِكَ بِمَا عَمِلَتْ وَأَنَّ اللَّهَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^٢.

فقوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ﴾ مع أنها أنثى والأصل في غير القرآن أن تكون: (مِنَ الْقَانِنَاتِ)، تغليبا للمذكر على المؤنث، والحكمة في ذلك الإخبار بأنها بلغت من العبادة والجِدِّ والاجتهاد والرفعة منزلة استحقت بها أن توصف بأوصاف الرجال القاننين.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾^٣.

فقوله تعالى: ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ مع أنها أنثى والأصل في غير القرآن أن تكون: (مِنَ الْغَابِرَاتِ) تغليبا للمذكر على المؤنث، والحكمة في ذلك الإخبار بأنها بلغت في رضاها بأفعال قومها القبيحة مبلغا عظيما فقد لأنها كانت ردءا لهم على دينهم، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي الله صلوات الله وسلامه عليه لا كرامة لها، لكنها لما رضيت بأفعالهم القبيحة استحقت أن تجازى جزاءهم وتعاقب عقابهم.

ومعنى: ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: من الهالكين.

ومنه قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾^٤.
فقوله تعالى: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ مع أنها أنثى والأصل في غير القرآن أن تكون: (مِنَ الْخَاطِئَاتِ)، وإنما قال بلفظ التذكير تغليبا للمذكر على المؤنث.

١ - سورة النساء: الآية/ ١٧٦

٢ - سورة التحريم: الآية/ ١٢

٣ - سورة النمل: الآية/ ٥٧

٤ - سورة يوسف: الآية/ ٢٩

٥- تَغْلِيْبُ مَا وَقَعَ بِوَجْهِ مَخْصُوصٍ عَلَى مَا وَقَعَ بغيرِهِ.

مثاله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾^١.

ذكر الأيدي لأن أكثر الأعمال تزاوُل بهنَّ، وإن كانت من أعمال القلوب، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب.

٦- تَغْلِيْبُ جَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى جَزَاءِ أَعْدَاءِ اللَّهِ.

مثاله قوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾^٢.

يعني: أهل الخير، وأهل الشر متفاوتون في منازلهم ودرجاتهم في الجنة ودركاتهم في النار، ودليل ذلك أن الله تعالى قال قبلها: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢]، ولما كانت الدرجات للعلو والدركات للسفل فاستعمل الدرجات في القسمين تغليباً.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ الآية^٣.

أي: ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله، يبلغه الله إياها ويثيبه بها، إن خيراً فخيرًا، وإن شراً فشرًا.

فلأهل طاعة الله درجات في الجنة، ولأهل معصيته دركات في النار، واستعمل الدركات في القسمين تغليباً.

٧- تَغْلِيْبُ الْأَكْثَرِ عَلَى الْأَقْلِ.

ومعناه أن يُنسَبَ إلى ينسب إلى الجميع وصف يختص بالأكثر دون الأقل.

مثاله قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^٤.

١ - سورة الروم: الآية/ ٣٦

٢ - سورة آل عمران: الآية/ ١٦٣

٣ - سورة الأنعام: الآية/ ١٣٢

٤ - سورة البقرة: الآية/ ١٣٣

فإسماعيل عليه السلام لم يكن أبًا ليعقوب عليه السلام ولكنه كان عمُّه، وإنما دخل في آبائه تغليبًا من باب تغليب الأكثر.

مثاله قوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾^١.

شعيب عليه السلام لم يكن في ملتهم أصلاً حتى يعود إليها، وإنما أُدخل عليه السلام في قوله: ﴿لَتَعُوذُنَّ﴾ تغليبًا، والذين آمنوا معه هم الذين كانوا على ملة قومهم فدخل في الخطاب معهم تغليبًا.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^٢.

دخل إبليس في أمر الله للملائكة بالسجود لآدم مع أنَّ إبليس كان من الجن ولم يكن من الملائكة، ولكنه لما كان مختلطاً بهم، وكان قد تشبَّه بهم، فعومِلَ مُعامَلَتَهُمْ، ودُمَّ على المخالفة، فحينئذ عمته الدعوة بـ بالخلطة للملائكة لا لكونه من جنسهم فدخل معهم تغليبًا، من باب تغليب الأكثر.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ....﴾ الآية^٣.

لا شك أن الناس فيهم المؤمن والكافر، والموقن والمرتاب، ولما كان أكثر الناس على غير الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية^٤. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾^٥.

١ - سورة الأعراف: الآية / ٨٨

٢ - سورة البقرة: الآية / ٣٤

٣ - سورة الحج: الآية / ٥

٤ - سورة الأنعام: الآية / ١١٦

٥ - سورة المائدة: الآية / ٤٩

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق ناكبون عنه، فلما دل ذلك على أن الكل لم يكونوا مرتابين غلب غير المرتابين منهم على المرتابين.

٨- تغليب الموجود على ما لم يوجد.

مثاله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^١.

المراد: أنهم يؤمنون بما أنزل على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وبما سينزل في المستقبل، وإنما عبر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضه مترقباً تغليبا للموجود على ما لم يوجد.

٩- تغليب المخاطب على الغائب.

مثاله قوله تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾^٢.

قال ابن القيم: أعاد الضمير بلفظ الخطاب وإن كان من تبعك يقتضي الغيبة لأنه اجتمع مخاطب وغائب فغلب المخاطب وجعل الغائب تبعا له كما كان تبعا له في المعصية والعقوبة فحسن أن يجعل تبعا له في اللفظ وهذا من حسن ارتباط اللفظ بالمعنى واتصاله به.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قال الزركشي: غلب فيه جانب (أنت) على جانب (من) فأسند إليه الفعل وكان تقديره: فاستقيموا فغلب الخطاب على الغيبة لأن حرف العطف فصل بين المسند إليهم الفعل فصار كما ترى.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾^٥.

١ - سورة البقرة: الآية / ٤

٢ - سورة الإسراء: الآية / ٦٣

٣ - بدائع الفوائد (٤ / ١٨٦)

٤ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٣٠٤)

٥ - سورة الأنبياء: الآية / ٩٨

بَيْنَ سَبْحَانِهِ لِأَهْلِ مَكَّةَ حَالِ مَعْبُودَاتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، أي: وقود جهنم وحطبها، ووجه إلقاء الأصنام في النار، مع كونها جمادات لا تعقل ذلك ولا تحس به: التبكيت لمن عبدها، وزيادة التوبيخ لهم، وتضاعف الحسرة عليهم، والخطاب لهم ولما يعبدون تغليياً.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾.^٢

﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾، أي: سفينة نوح، وسميت جارية لأنها تجري في الماء، والمعنى: ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ في أصلاب آبائكم، أو حملناهم وحملناكم في أصلابهم تغليياً للمخاطبين على الغائبين.

١ - فتح القدير للشوكاني (٥٠٦ / ٣)

٢ - سورة الحاقة: الآية / ١١

خُرُوجُ اللَّفْظِ مَخْرَجَ الْغَالِبِ

معنى خُرُوجِ اللَّفْظِ مَخْرَجَ الْغَالِبِ:

معنى خُرُوجِ اللَّفْظِ مَخْرَجَ الْغَالِبِ: أَنْ يَكُونَ الْوَصْفُ الَّذِي وَقَعَ بِهِ التَّقْيِيدُ فِي الْكَلَامِ غَالِبًا عَلَى تِلْكَ الْحَقِيقَةِ الْمَذْكُورَةِ مَوْجُودًا مَعَهَا فِي أَكْثَرِ صُورِهَا.

أمثلة على خُرُوجِ اللَّفْظِ مَخْرَجَ الْغَالِبِ:

قول الله تعالى: ﴿وَرَبَائِكُمْ الَّلَاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ.....﴾ الآية.^١

الريبة: بنت زوجة الرجل، بنت الزوجة من آخر، سميت بذلك لأنه غالباً يربيهما في حجره، كما يربي ولده ثم اتسع فيه فسميت به وإن لم يربها.

وكونهن في حجور أزواج الأمهات هو الغالب من حالهن فوصفهن به لكونه الغالب فلا يدل الكلام المفيد للحكم المتعلق بالحقيقة المقيدة به على نفي الحكم عند عدمه.^٢

فجمهور الأمة على أن الريبة حرام سواء كانت في حجر الرجل، أو لم تكن في حجره، قالوا: وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾.^٤

فقول الله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾، خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، ومعناه تحريم إكراههن سواء في ذلك إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا أو لم يردن تَحَصُّنًا.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾.^٥

١ - سورة النساء: الآية/ ٢٣

٢ - الفروق للقراي (٢/ ٥٤)

٣ - تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥١)

٤ - سورة النور: الآية/ ٣٣

٥ - سورة الإسراء: الآية/ ٣١

فَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿حَشِيَّةٌ إِفْلَاقٍ﴾، خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ لَا الشَّرْطِ، وَالْمَنْطُوقُ إِذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ أَوْ عَلَى حَادِثَةٍ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ، فَإِنَّ الْغَالِبَ عَلَى مَنْ كَانُوا يَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ مَخَافَةَ الْفَقْرِ وَالْعُوزِ، وَقَتْلَ الْأَوْلَادِ مُحَرَّمٌ سِوَاءَ مَا كَانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ الْفَقْرِ أَوْ غَيْرِهِ.

وَيَسْتَوِي فِي ذَلِكَ الْخَوْفُ مِنَ الْفَقْرِ الْحَاصِلِ وَالْفَقْرِ الْمَتَوَقَّعِ، وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ إِلَى الْحَالَتَيْنِ كَمَا هُنَا، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِفْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾^١. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^٢.

فَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ لَا الشَّرْطِ، وَالْمَنْطُوقُ إِذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ، فَقَدْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْخَوْفُ فِي الْأَسْفَارِ، فَعَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ: سَأَلْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قُلْتُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَقَدْ آمَنَ اللَّهُ النَّاسُ؟ فَقَالَ لِي عُمَرُ: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: "صَدَقَ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ"^٣.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾.

فَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾، خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ لَا الشَّرْطِ، لِأَنَّ الرَّهْنَ لَا يُحْتَصَرُ بِالسَّفَرِ لَكِنْ ذَكَرَ لِأَنَّ فَقْدَ الْكَاتِبِ يَكُونُ فِي السَّفَرِ غَالِبًا، فَلَمَّا كَانَ السَّفَرُ مَظْنَةً إِعْوَارِ الْكَاتِبِ وَالشَّاهِدِ الْمُوثِقِ بِهِمَا أَمَرَ عَلَى سَبِيلِ الْإِرْشَادِ بِحِفْظِ مَالِ الْمَسَافِرِينَ بِأَخْذِ الْوَثِيقَةِ الْأُخْرَى وَهِيَ الرَّهْنُ.

فَأَخَذَ الرَّهْنَ جَائِزٌ مَعَ وَجُودِ الْكَاتِبِ وَالشَّاهِدِ، فَلَيْسَ فَقْدُ الْكَاتِبِ شَرْطًا فِي جَوَازِ أَخْذِ الرَّهْنِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ.

١ - سورة الأنعام: الآية/ ١٥١

٢ - سورة النساء: الآية/ ١٠١

٣ - رواه مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم: ٦٨٦

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^١.

فقول الله تعالى: ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾، خرج مخرج الغالب لا الشرط، فإنَّ أكل الربا منهي عنه قليلاً كان أو كثيراً، وذكر التقييد بـ ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾، باعتبار ما كانوا عليه في الجاهلية.

قال الشوكاني: وقوله: ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾، ليس لتقييد النهي لما هو معلوم من تحريم الربا على كل حال، ولكنه جيء به باعتبار ما كانوا عليه من العادة التي يعتادونها في الربا، فإنهم كانوا يربون إلى أجل، فإذا حل الأجل زادوا في المال مقدارا يتراضون عليه، ثم يزدون في أجل الدين، فكانوا يفعلون ذلك مرة بعد مرة حتى يأخذ المربي أضعاف دينه الذي كان له في الابتداء وأضعافاً: حال، ومضاعفة: نعت له، وفيه إشارة إلى تكرار التضعيف عاما بعد عام، والمبالغة في هذه العبارة تفيد تأكيد التوبيخ.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾^٣.

فقول الله تعالى: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾، خرج مخرج الغالب لا الشرط، فليس هذا دليلاً على أن أحداً يجوز أن يقوم له برهان على صحة القول بأن مع الله إلهاً آخر تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولا حجة لأحدٍ في دعوى الشرك، وإنما الحجة عليهم.

١ - سورة آل عمران: الآية / ١٣٠

٢ - فتح القدير للشوكاني (١ / ٤٣٦)

٣ - سورة المؤمنون: الآية / ١١٧

الْفُّ وَالنَّشْرُ

الْفُّ وَالنَّشْرُ أسلوب مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ وهو من المحسِّنات البديعية، ويضفي على الكلام رونقاً وجمالاً، وهو من بديع البلاغة، وعجيب النظم.

تعريف الفِّ والنَّشْرِ:

قال السكاكي: الفُّ والنَّشْرُ أن تلفَّ بين شيئين في الذِّكر ثم تُتبعهما كلاماً مشتملاً على متعلِّق بواحد وبآخر من غير تعيين. ثقةً بأن السامع يردّ كلا منهما إلى ما هو له.^١

وقال السيوطي: الف والنشر: هو أن يذكر شيئين أو أشياء، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ثم يذكر أشياء على عدد ذلك كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ويفوز إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به.^٢ والترتيب في الفِّ والنَّشْرِ هو الأصل والغالب.

واللف والنشر من أساليب العرب في كلامها، ومنه قول امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا ***** لَدَى وَكْرِهِا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

فيه لف ونشر مرتب وتقديره: كأن قلوب الطير حال كون بعضها رطباً وبعضها يابساً، عند عش العقاب العناب، وهو ثمر أحمر رطب، فهو راجع للرطب. والحشف: الجاف الرديء من التمر البالي، وهو راجع لليابس.

وقال النمر بن تولب:

أَلَا يَا لَذَا النَّاسِ لَوْ يَعْلَمُوا ***** نَ لِلْخَيْرِ خَيْرٌ وَلِلشَّرِّ شَرٌّ
فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا ***** وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

١ - مفتاح العلوم (ص: ٤٢٥)

٢ - الإتيان في علوم القرآن (٣/ ٣٢٠)

ففي البيت الثاني لف ونشر مرتب فقوله: فيوم علينا هو اليوم الذي يُسيء وقوله: ويوم لنا هو اليوم الذي يسر.

ومثاله قول الشاعر:

قلبي وجفني واللسان وخالقي ***** راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورٌ
ف (راضٍ) يعود على (قلبي)، و (باكٍ) يعود على (جفني)، و (شاكرٌ) يعود على (اللسان)، و (غفورٌ) يعود على (خالقي).

أقسامُ اللَّفِّ والنَّشْرِ:

اللَّفُّ والنَّشْرُ ينقسم إلى قسمين:

الأول: لف ونشر مُرتَّب، ويقال له: موافق.

الثاني: لف ونشر غير مُرتَّب، ويقال له: لف ونشر مشوش.

أولاً: اللَّفُّ والنَّشْرُ المرتَّب:

مثاله:

قول الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^١.

قال الطيبي: فيه لف ونشر، يعني أنه لطيف لا تحيط بكنهه الأبصار، وهو للطف إدراكه للمدركات يحيط بتلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك علما، ﴿الْخَبِيرُ﴾ العليم ببواطن الأشياء من الخبرة، وهي العلم بالخفايا الباطنة.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾^٣.

١ - سورة الأنعام: الآية/ ١٠٣

٢ - شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (٦/ ١٧٩٠)

٣ - سورة الأنعام: الآية/ ١٥٨

في الكلام حذف اختصار تقديره كما قال ابن الحاجب: لا ينفع نفساً إيمانها ولا كسبها لم تكن آمنت أو كسبت. قال السبكي: ويكون في الكلام لف ونشر. أي لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ولا ينفعها كسبها لم تكن كسبت في إيمانها خيراً، والمقصود سلب النفع إلا عن إيمان أو كسب الخير.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿الرَّكِتَابُ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.^٢ في هذه الآية لفٌ ونشرٌ مُرتَّبٌ، فقد ذكر الله تعالى في اللفِّ أنَّ هذا الكتابِ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثم فصلت، ثم ذَكَرَ فِي النَّشْرِ: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾؛ فيكون المعنى: أحكمها حَكِيمٌ، وفصلها خَبِيرٌ عالمٌ بمواقع الأمور.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.^٣

فقوله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾، راجعٌ إلى اللَّيْلِ، أي: لِتَسْكُنُوا فِي اللَّيْلِ، وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ راجعٌ إلى وَالنَّهَارِ، أي: وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ فِي النَّهَارِ، ففي الآية لفٌ ونشرٌ مُرتَّبٌ.

ومثاله أيضاً قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.^٤

في هذه الآية لفٌ ونشرٌ مُرتَّبٌ؛ فقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات اللفِّ في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، ثم ذكر النشر فبدأ بذكر حال الذين شقوا، ثم أعقب ذلك بذكر حال الذين سعدوا.

١ - فتاوى السبكي (١/ ٣٦)

٢ - سورة هود: الآية/ ١

٣ - سورة القصص: الآية/ ٧٣

٤ - سورة هود: الآية/ ١٠٥ - ١٠٨

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾^١.

قال ابن عرفة: هذا لف ونشر؛ فاللوم راجع إلى البخل؛ لأن الإنسان يلام على عدم النفقة، ولم يقل مذموماً ليتناول ذلك النهي عن البخل بالواجب، وبغيره، وقوله: ﴿مَّحْسُورًا﴾، راجع إلى النهي عن بسط اليد؛ لأنه إذا بالغ في بسطها يقل درهمه ورزقه ويتغير عليه فيبقى محسوراً.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾^٣.

في الكلام لف ونشر، اللف في قولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾، والنشر في قوله: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾، فالاستكبار لقولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾، والعتو لقولهم: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾.

قال ابن عرفة: الاستكبار راجع لإنزال الملائكة عليهم، والعتو لمطلب الرؤية.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) وَعَادًا وَثَوَدًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^٥.

١ - سورة النور: الآية/ ٢٩

٢ - تفسير ابن عرفة (٣/ ٦٣)

٣ - سورة الفرقان: الآية/ ٢١

٤ - تفسير ابن عرفة (٣/ ٢٣٢)

٥ - سورة العنكبوت: الآية/ ٣٦ : ٤٠

الذين أرسل عليهم حاصب هم عادٌ، والذين أخذتهم الصيحة هم ثمود، والذين خسفت بهم الأرض هو قارون وأهله، والذين أغرقهم: فرعون وهامان ومن معهما من قومهما. ففي الآيات لفٌ ونشرٌ مُرتَّبٌ كما ذكرنا.

ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾^١. في هذه الآية لفٌ ونشرٌ مُرتَّبٌ، فقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات اللفَّ في انشقاق الأرض عن أجناس من الزروع والنباتات، منها الحبوب والأعنان، والزيتون والنخيل، والحدائق الغناء، والفواكه الكثيرة، والأب وهو ما تأكله الأنعام من النبات، ثم ذكر النشر في قوله: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾، فكانت الأعنان والزيتون والنخيل، والحدائق والفواكه لبني آدم، وكان الأبُّ للأنعام.

ثانيًا: اللفُّ والنشرُ غيرُ المرتَّب:

مثاله:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾^٢.

قال ابن عرفة: هذا لفٌ ونشرٌ لأنه لما تقدم ذكر المثل وذكر (بعده) الفريقين عقبه ببيان أنه يضل به قوماً، ويهدي به آخرين^٣.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتِمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾^٤.

١ - سورة عبس: الآية / ٣٢

٢ - سورة البقرة: الآية / ٢٦

٣ - تفسير ابن عرفة (١/ ٢١٣)

٤ - سورة البقرة: الآية / ٢١٤

في الآية لف ونشر غير مرتب، فيكون تقدير الكلام: يقول الذين آمنوا متى نصر الله، فيقول الرسول: ألا إن نصر الله قريب، واختار هذا الواحدي، قال: وإنما قلنا إنه كذلك؛ لأن الرسول لا يشبهه أن يقول: متى نصر الله، وهذا حسن لمن تأمله.^١

قال ابن عطية: قالت طائفة: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله فيقول الرسول ألا إن نصر الله قريب، فقدم الرسول في الرتبة لمكانته ثم قدم قول المؤمنين لأنه المتقدم في الزمان.

قال القاضي أبو محمد: وهذا تحكم، وحمل الكلام على وجهه غير متعذر، ويحتمل أن يكون: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾، إخباراً من الله تعالى مؤثناً بعد تمام ذكر القول.^٢

وقال ابن عرفة: لا حاجة إلى هذا التقديم والتأخير بل هو لف ونشر مخالف، جعل فيه أول القولين للقائل الثاني لكونه يليه.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.^٤

في الآيتين لف ونشر غير مرتب، فقد ذكر في اللف الابيضاض قبل الاسوداد، وذكر في النشر حكم من اسودت وجوههم قبل حكم من ابيضت وجوههم؛ لأن المقام مقام تهيب.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾.^٥

في هذه الآية لف ونشر غير مرتب، فقد ذكر في اللف الليل قبل النهار، فقال: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، وذكر في النشر: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يُرِيدُ

١ - التفسير البسيط (٤ / ١٢٥)

٢ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١ / ٢٨٨)

٣ - تفسير ابن عرفة (٢ / ٦١٣)

٤ - سورة آل عمران: الآية / ١٠٦، ١٠٧

٥ - سورة الإسراء: الآية / ١٢

التَّصَرَّفَ فِي الْمَعَاشِ فِي النَّهَارِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾، والمرادُ الحسابُ المتعلقُ بما في ضمنِ السنينِ من الأشهرِ والليالي والأيام، يعني منازل القمر.

ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا^١.

في هذه الآية لف ونشر غير مرتب، فقد ذكر الله تعالى في اللفِّ افتراقَ الناسِ إلى فريقين: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، ثم ابتداءً في النَّشْرِ بذكر ما أعدَّه الله تعالى للكافرين؛ فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾، ثم أتبع ذلك بما أعدَّه الله تعالى للشاكرين وسمَّاهم أبرارًا؛ فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾.

الإيجازُ

الإيجازُ مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَعِ الْبَلَاغَةِ، قَالَ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ: الْإِيجَازُ مِنْ الْأَرْكَانِ فِي أَمْرِ الْإِعْجَازِ.^١

حُدُّ الْإِيجَازِ:

الْإِيجَازُ لُغَةً: الْاِخْتِصَارُ.

وَالْإِيجَازُ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: إِيجَازُ قَصْرٍ، وَإِيجَازُ حَذْفٍ.

الْفَرْقُ بَيْنَ إِيجَازِ الْقَصْرِ وَإِيجَازِ الْحَذْفِ:

الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْكَلَامَ الْقَلِيلَ إِنْ كَانَ بَعْضًا مِنْ كَلَامٍ أَطْوَلَ مِنْهُ، فَهُوَ إِيجَازُ حَذْفٍ، وَإِنْ كَانَ كَلَامًا يُعْطَى مَعْنَى أَطْوَلَ مِنْهُ فَهُوَ إِيجَازُ قَصْرٍ.^٢

أَوَّلًا: إِيجَازُ الْقَصْرِ.

تَعْرِيفُ إِيجَازِ الْقَصْرِ:

إِيجَازُ الْقَصْرِ اصْطِلَاحًا هُوَ: تَقْلِيلُ الْأَلْفَافِ، وَتَكْثِيرُ الْمَعَانِي.^٣

مِثَالُهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.^٤

هَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ قَلِيلَةً الْمَبْنَى إِلَّا أَنَّهَا عَظِيمَةُ الْمَعْنَى، فَقَدْ جَمَعَتْ كُلَّ حَبْرٍ بِذِكْرِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَجَمَعَتْ كُلَّ شَرٍّ بِذِكْرِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ، لِذَلِكَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ حَلَالٌ، وَحَرَامٌ، وَأَمْرٌ، وَنَهْيٌ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾.^٥

١ - دلائل الإعجاز (١ / ٥٢١)

٢ - عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١ / ٥٨٦)

٣ - الصناعتين: الكتابة والشعر (ص: ١٧٥)

٤ - سورة النحل: الآية / ٩٠

٥ - رواه الطبراني في الكبير - حديث رقم: ٨٦٦١

وقراها الحسنُ يوماً ثم وقف فقال: إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة فوالله ما ترك ﴿بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾، من طاعة الله شيئاً إلا جمعه ولا ترك ﴿الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ من معصية الله شيئاً إلا جمعه.^١

فإنَّ الله تعالى جمع في هذه الآية ما يتصل بالتكليف فرضاً ونفلاً، وما يتصل بالأخلاق والآداب عموماً وخصوصاً.^٢

فالعدل هو التوسط بين الإفراط والتفريط، والإحسان ذروة الإخلاص والعبادة، وصَفْوَةُ الأخلاقِ وأرفعها رتبةً.

﴿وَإِتْيَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾، هو الزيادة على الواجب من النوافل هذا في الأوامر، وأما الثلاثة التي نهى الله عنها، وهي الفحشاء والمنكر والبغي فنقول: إنه تعالى أودع في النفس البشرية قوى أربعة، وهي الشهوانية البهيمية والغضبية السبعية والوهمية الشيطانية والعقلية الملكية.^٣

﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، المراد منه المنع من تحصيل اللذات الشهوانية الخارجة عن إذن الشريعة، وأما القوة الغضبية السبعية فهي: أبداً تسعى في إيصال الشر والبلاء والإيذاء إلى سائر الناس، ولا شك أن الناس ينكرون تلك الحالة، فالمنكر عبارة عن الإفراط الحاصل في آثار القوة الغضبية. وأما القوة الوهمية الشيطانية فهي أبداً تسعى في الاستعلاء على الناس والترفع وإظهار الرياسة والتقدم.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]؛ فإنها جامعة لمكارم الأخلاق لأن في أخذ العفو التساهل والتسامح في الحقوق واللين والرفق في الدعاء إلى الدين وفي الأمر بالمعروف كف الأذى وغض البصر وما شاكلهما من المحرمات وفي الإعراض الصبر والحلم والتؤدة.^٥

١ - رواه البيهقي في شعب الإيمان - باب في الإيمان برسل الله صلوات الله عليهم، حديث رقم: ١٣٨، وأبو نعيم في

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٥٨)

٢ - تفسير الرازي (٢٠/ ٢٥٨)

٣ - تفسير الرازي (٢٠/ ٢٦١)

٤ - تفسير الرازي (٢٠/ ٢٦١)

٥ - الإتيان في علوم القرآن (٣/ ١٨٣)

ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا لَدَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^١.

قال أبو هلال: لا يوازي هذا الكلام في الاختصار شيء^٢.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾^٣.

ففيه النهي عن البغي، وذمه وذم من أتصف به، وبيان أن وبال البغي راجع إلى صاحبه.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾^٤.

جمعت هذه الآية جميع عيوب الخمر من الصداق وعدم العقل وذهاب المال ونفاد الشراب.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^٥.

فاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَمْرٌ وَهَيٌّ وَأَحْبَرٌ وَنَادَى، وَنَعَتْ وَسَمَّى وَأَهْلَكَ وَأَبْقَى، وَأَسْعَدَ وَأَشَقَّى، وَقَصَّ مِنَ الْأَنْبَاءِ.

قال الكِرْمَانِيُّ: أجمع المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية بعد أن فتشوا جميع كلام العرب والعجم فلم يجدوا مثلها في فخامة ألفاظها وحسن نظمها وجودة معانيها في تصوير الحال مع الإيجاز من غير إخلال^٦.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^٧.

١ - سورة المؤمنون: الآية/ ٩١

٢ - الصناعتين: الكتابة والشعر (ص ١٧٦)

٣ - سورة يونس: الآية/ ٢٣

٤ - سورة الواقعة: الآية/ ١٩

٥ - سورة هود: الآية/ ٤٤

٦ - لباب التفاسير للكرماني (ص: ٧٥١)

٧ - سورة النمل: الآية/ ١٨

جمع في هذه اللفظة أحد عشر جنسًا من الكلام نادى وكنت ونبهت وسمت وأمرت ونصت وحذرت وخصت وعمت وأشارت وعذرت فالنداء ﴿يَا﴾، والكناية ﴿أَي﴾، والتنبيه ﴿هَا﴾ والتسمية ﴿النَّمْلُ﴾، والأمر ﴿ادخلوا﴾، والتنصيص ﴿مَسَاكِينُكُمْ﴾، والتحذير ﴿لَا يَخْطَمَنَّكُمْ﴾، والتخصيص ﴿سُلَيْمَانُ﴾، والتعميم ﴿وَجُنُودُهُ﴾، والإشارة ﴿وَهُمْ﴾، والعذر ﴿لَا لَا يَشْعُرُونَ﴾، فأدت خمس حقوق حق الله وحق رسوله وحقها وحق رعيته وحق جنود سليمان.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.^٢

وهذه الآية جمع فيها أصول الكلام النداء والعموم والخصوص والأمر والإباحة والنهي والخبر، وقال بعضهم جمع الله الحكمة في شطر آية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾.^٣ ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.^٤

وقال ابن العربي: هي من أعظم آي في القرآن فصاحة إذ فيها أمران ونهيان وخبران وبشارتان.^٥

فالأمران: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾، و ﴿فَالْقِيهِ﴾، والنهيان: ﴿لَا تَخَافِي﴾، و ﴿لَا تَحْزَنِي﴾، والخبران: ﴿أَوْحَيْنَا﴾، و ﴿خِفَتْ عَلَيْهِ﴾، والبشارتان: ﴿رَادُّوهُ إِلَيْكَ﴾، و ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.^٦

١ - الإتيان في علوم القرآن (٣ / ١٨٤)

٢ - سورة الأعراف: الآية / ٣١

٣ - الإتيان في علوم القرآن (٣ / ١٨٤)

٤ - سورة القصص: الآية / ٧

٥ - الإتيان في علوم القرآن (٣ / ١٨٥)

٦ - سورة الزخرف: الآية / ٧١

قال القفال: جمع بهاتين اللفظتين ما لو اجتمع الخلق كلُّهم على وصف ما فيهما على التفصيل لم يخرجوا عنه.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ.....﴾.^٢

فإن معناه كثير ولفظه قليل لأن معناه أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل قتل كان ذلك داعياً إلى ألا يقدم على القتل فارتفع بالقتل الذي هو القصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض وكان ارتفاع القتل حياة لهم.^٣

ثانياً: إيجاز الحذف:

قلنا إن الإيجاز هو: جعل المعنى الكثير في اللفظ القليل، وتكلمنا عن القسم الأول منه وهو إيجاز القصر.

والقسم الثاني من قسمي الإيجاز: وهو إيجاز الحذف.

حدُّ إيجاز الحذف:

هو ما يكون بحذف شيء من أصل الكلام.^٤

وقد يكون المحذوف حرفاً، وقد يكون كلمةً، وقد يكون أكثر من كلمةٍ.

أمثلة حذف حرفٍ:

حذف حرف الجر كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزُمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾.^٥

ومعنى الكلام: ولا تعزموا على عقد النكاح.

١ - لباب التفاسير للكرماني (ص: ٢٧٦٢)

٢ - سورة البقرة: الآية / ١٧٩

٣ - الإتيان في علوم القرآن (٣ / ١٨٥)

٤ - عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١ / ٥٩١)

٥ - سورة البقرة: الآية / ٢٣٥

وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾^١.

ومعنى الكلام: إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُكُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِهِ.

وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾^٢.

ومعنى الكلام: وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ لِقَلَّا تَمِيدَ بِكُمْ.

وحذف "أَنْ" كما في قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾^٣.

ومعنى الكلام: أَنْ يُرِيكُمُ؛ كما في قوله عز وجل: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا

عَلَيَّ إِسْلَامُكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^٤.

ومعنى الكلام: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ بِأَنْ أَسْلَمُوا.

أَمْثَلُهُ حَذْفُ كَلِمَةٍ:

وكما في قوله تعالى: ﴿لَا تُفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ الآية^٥.

ومعنى الكلام: لَا تُفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ وَأَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ

فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ﴾^٦.

ومعنى الكلام: فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند باريكم ففعلتم فتاب عليكم.

١ - سورة النساء: الآية/ ١٧٥

٢ - سورة النحل: الآية/ ١٥

٣ - سورة الروم: الآية/ ٢٤

٤ - سورة الحجرات: الآية/ ١٧

٥ - سورة البقرة: الآية/ ٢٨٥

٦ - سورة البقرة: الآية/ ٥٤

ومنه قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾.^١

قال ابن عطية: وفي الكلام محذوف تقديره وقلنا لهم كلوا المن والسلوى واشربوا الماء المنفجر من الحجر المنفصل، وبهذه الأحوال حسنت إضافة الرزق إلى الله تعالى، وإلا فالجميع رزقه وإن كان فيه تكسب للعبد.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.^٣

وفي الآية إضمار واختصار؛ تقديره: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾؛ فضرب ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾؛ أي: سالت.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾.^٥

في الكلام حذف تقديره: أَشْهُرُ الْحَجِّ أَشْهُرٌ، أو وقتُ الْحَجِّ أَشْهُرٌ.

وكما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾.^٦

قال القرطبي: وفي الكلام حذف مضاف تقديره مثل نفقة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة.^٧

١ - سورة البقرة: الآية / ٦٠

٢ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١ / ١٥٢)

٣ - سورة البقرة: الآية / ٦٠

٤ - تفسير الحداد (١ / ١٧٥)

٥ - سورة البقرة: الآية / ١٩٧

٦ - سورة البقرة: الآية / ٢٦١

٧ - تفسير القرطبي (٣ / ٣٠٣)

وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾^١.

قال النحاس: والمعنى ان استطعت أن تبغى نفقاً في الارض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية فافعل ثم حذف هذا لعلم السامع.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^٣.

في الآية حذف تقديره: سارعوا إلى ما يوجب المغفرة من ربكم، ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بِعُثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾^٤.

في الآية حذف تقديره: ما خلقكم أيها الناس ولا بعثكم على الله إلا كخلق نفس واحدة وبعثها.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.....﴾^٦.

في الآية حذف تقديره: ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر، حذف المضاف وهو لفظ: (بر) إيجازاً لدلالة السياق عليه.

قال الطبري: والمعنى: ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر.^٧

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾^٨.

١ - سورة الأنعام: الآية/ ٣٥

٢ - معاني القرآن للنحاس (٢/ ٤٢٠)

٣ - سورة آل عمران: الآية/ ١٣٣

٤ - سورة لقمان: الآية/ ٢٨

٥ - تفسير الطبري (١٨/ ٥٧٤)

٦ - سورة البقرة: الآية/ ١٧٧.

٧ - تفسير الطبري (٨/ ٤٢٣)

٨ - سورة البقرة: الآية/ ٩٣

ومعنى الكلام: وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ حُبَّ الْعِجْلِ، فَحُذِفَ الْمُضَافُ وهو لفظ: (حُبِّ) إيجازاً لدلالة السياق عليه.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾^١.

في الكلام حَذَفَ تَقْدِيرُهُ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ بالهدى.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ الآية^٢.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾ الآية^٣.

وتقدير الكلام: (شَهَادَةُ اثْنَيْنِ)، حُذِفَ المضاف، وأُقيِمَ المضافُ إليه مقامه.

ومعنى الكلام: فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا لو مَلَكَهُ ولو افْتَدَى به.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجْزَوْنَ مِنْهَا جِزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الآية^٤.

ومعنى الكلام: وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ واعتقدوا الإيمان.

أَمْثَلُهُ حَذَفِ أَكْثَرَ مِنْ كَلِمَةٍ:

قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^٥.

في الآية حَذَفَ مقدراً في نهاية الآية وتقديره: (ولا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ، ولا يُسْأَلُونَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). وتركت الجملة الثانية لدلالة قواعد الشريعة عليها، ودلالة العقل عليها،

١ - سورة النساء: الآية/ ٤٤

٢ - سورة آل عمران: الآية/ ٩١

٣ - سورة المائدة: الآية/ ١٠٦

٤ - سورة الحشر: الآية/ ٩

٥ - سورة البقرة: الآية/ ١٤١

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾^١.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْلٍ﴾^٢.

ومعنى الكلام: فمن كان منكم مريضًا أو به أذى من رأسه فحلق فعليه فدية.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^٣.

قال صاحب الدر المصون: وفي الكلام حذف أي: ولا يُسألون عما كنتم تعملون. قال أبو البقاء: «ودلّ عليه: ﴿هَٰذَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ انتهى. ولو جعل الدالّ قوله: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كان أولى لأنه مقابلة»^٤.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^٥.

في الكلام حذف تقديره: فأما الذين اسودّت وجوههم فيقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون.^٦

وقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾^٧.

١ - سورة يونس: الآية/ ٤١

٢ - سورة البقرة: الآية/ ١٩٦

٣ - سورة سبأ: الآية/ ٢٥

٤ - الدر المصون في علم الكتاب المكنون (١/ ٣٣٠)

٥ - سورة آل عمران: الآية/ ١٠٦

٦ - تفسير الطبري (٥/ ٦٦٤)

٧ - سورة آل عمران: الآية/ ١١٣

في الكلام حذفٌ تقديره: في الكلام اختصار وحذف، تقديره: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾، وأخرى غير قائمة، فترك ذكر الأخرى اكتفاءً بذكر أحد الفريقين.^١

وكما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾.^٢

في الكلام حذف، والمعنى: ولكن جعل شرائعكم مختلفة ليختبركم فيما آتاكم من شرائعه.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾.^٤

أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورهم، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.^٦

في الكلام حذف مضافين، والتقدير: فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها.^٧

وكما في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.^٨

ومعنى الكلام: تدور أعينهم كدوران عيني الذي يغشى عليه من الموت.

١ - تفسير الثعلبي (١٦٩ / ٩)

٢ - سورة المائدة: الآية / ٤٨

٣ - الهداية الى بلوغ النهاية (١٧٧١ / ٣)

٤ - سورة الرعد: الآية / ٣١

٥ - تفسير ابن كثير (٤٦٠ / ٤)

٦ - سورة الحج: الآية / ٣٢

٧ - تفسير الكشاف (١٥٦ / ٣)

٨ - سورة الأحزاب: الآية / ١٩

وكما في قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾^١.

قال الأزهري: معنى الآية: وتجعلون بدل شكر رزقكم الذي رزقكم الله التكذيب.^٢

وكما في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^٣.

قال الطبري: معنى الكلام: فبما نقضهم ميثاقهم، وكفرهم بآيات الله، وبكذا وبكذا، لعناهم وغضبنا عليهم فترك ذكر لعناهم لدلالة قوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، على معنى ذلك. إذ كان من طبع على قلبه، فقد لعن وسخط عليه.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن الذين أخذتهم الصاعقة، إنما كانوا على عهد موسى والذين قتلوا الأنبياء، والذين رموا مريم بالبهتان العظيم، وقالوا: قتلنا المسيح، كانوا بعد موسى بدهر طويل. ولم يدرك الذين رموا مريم بالبهتان العظيم زمان موسى، ولا من صُنع من قومه. وإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أنّ الذين أخذتهم الصاعقة، لم تأخذهم عقوبةً لرميهم مريم بالبهتان العظيم، ولا لقولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾. وإذا كان ذلك كذلك، فبيّن أن القوم الذين قالوا هذه المقالة، غير الذين عوقبوا بالصاعقة. وإذا كان ذلك كذلك، كان بيّنًا انفصال معنى قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾، من معنى قوله: ﴿فَأَخَذْتُمُ الصَّاعِقَةَ بِظُلْمِهِمْ﴾^٤.

وقدره ابن عطية: لعناهم وأذللناهم، وحثمنا على الموافين منهم الخلود في جهنم.

١ - سورة الواقعة: الآية/ ٨٢

٢ - التفسير الوسيط للواحدي (٤/ ٢٤٠)

٣ - سورة النساء: الآية/ ١٥٥ - ١٥٨

٤ - تفسير الطبري (٧/ ٦٤٨)

قال ابن عطية: وحذف جواب هذا الكلام بليغ منهم، متروك مع ذهن السامع، تقديره لعناهم وأذللناهم، وحتمنا على الموافين منهم الخلود في جهنم.^١
والباء في: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾، فيما نقضهم تتعلق بمحذوف قدره الزمخشري: فعلنا بهم ما فعلناه.^٢

١ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١٣٢ / ٢)

٢ - البحر المحيط في التفسير (١٢٣ / ٤)

الإطنابُ

تعريف الإطناب:

الإطنابُ لغةً: المبالغةُ في الشيء.

قال ابن فارس: أطنب في الشيء إذا بالغ.^١

وقال ابن سيده: الإطناب: البلاغة في المنطق والوصف، مدحاً كان أو ذمّاً.^٢

وفي اصطلاح البيانين: زيادة اللفظ على المعنى لفائدة.^٣

فإن لم يكن في الكلام زيادة في المعنى كان ذلك تطويلاً، وليس ذلك من الفصاحة في شيء بل هو عي.

ولا شك أن الإطناب أسلوب من أساليب البلاغة في المنطق والوصف.

وقد قيل: الإيجاز بلاغة والتقصير عي، كما أن الاطناب بلاغة والتطويل عي.^٤

وقال السيوطي في الإيجاز والإطناب: اعلم أنهما من أعظم أنواع البلاغة حتى نقل صاحب سر الفصاحة عن بعضهم أنه قال: البلاغة هي الإيجاز والإطناب.

قال صاحب الكشاف: كما أنه يجب على البليغ في مظهر الإجمال أن يجمل ويوجز فكذا الواجب عليه في موارد التفصيل أن يفصل ويشبع أنشد الجاحظ:

يَزْمُونَ بِالْحُطْبِ الطَّوَالَ وَتَارَةً ***** وَحَيَّ الْمُلَاحِظِ خَيْفَةَ الرُّقْبَاءِ

أقسام الإطناب:

ينقسم الإطناب إلى عدة أقسام وهي:

١ - معجم مقاييس اللغة (٣ / ٤٢٦)

٢ - المحكم والمحيط الأعظم (٩ / ١٨٩)

٣ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢ / ٢٨٠)

٤ - اعجاز القرآن للرمانى (ص: ٣)، وانظر إعجاز القرآن للباقلائي (١ / ٢٦٣)

٥ - الإتقان في علوم القرآن (٣ / ١٧٩)

- ١- الإيضاح بعد الإجماع.
- ٢- ذكر الخاص بعد العام.
- ٣- ذكر العام بعد الخاص.
- ٤- التكرير لداعٍ.
- ٥- الاحتراس.
- ٦- الاعتراض.
- ٧- التذييل.
- ٨- الإيضاح.
- ٩- الإيغال.
- ١٠- البسط.
- ١١- التتميم.
- ١٢- التكميل.
- ١٣- التوشيع.
- ١٤- الزيادة.

أمثلة الإطناب:

القسم الأول الإطناب بالبسط:

سنتناول إن شاء الله في هذا البحث عددًا من هذه الأقسام بالبيان ونفرد الكلام عن كل قسم منها على حدة، وليس الغرض في هذا البحث أن نستقصي كل الأقسام بالدراسة، إنما البحث في أشهر هذه الأقسام، أما هنا فتحدث عن قسمين من أقسام الإطناب، وهما البسط والزيادة، وإليك أمثلة على إطناب البسط والزيادة.

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ

مَوْتَهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^١.

في الآية إطنابٌ بتكثيرِ الجمل؛ لأنَّ الخطابَ في الآية للإنس والجن، وفيهم العالمُ والجاهلُ، والمؤمن والكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^٢.

فقوله تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ إطنابٌ؛ لأنَّ اللمس عادة لا يكون إلا بالأيدي. وفائدته: زيادة التأكيد ودفع احتمال التجوز الواقع في قوله تعالى حكاية عن الجن: «وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ» أي تفحصنا السماء.

أما هنا ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: جَسُّوه وعاینوه، ورأوا نزوله، وباشروا ذلك بحيث لم يبق عندهم فيه اشتباه، وفيه بيان لمكابرتهم للمحسوسات.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾^٣.

فقوله تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ إطنابٌ لأنَّ إيمانَ حملة العرش معلومٌ، وفائدته إظهارُ شرف الإيمانِ ترغيباً فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾^٤.

فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ إطنابٌ لأنَّ المشركين لا يؤتون الزكاة، وفائدته حثُّ المؤمنين على أدائها والتحذير من منعها، لأن ذلك من أوصاف المشركين.

١ - سورة البقرة: الآية / ١٦٤

٢ - سورة الأنعام: الآية / ٧

٣ - سورة غافر: الآية / ٧

٤ - سورة فصلت: الآية / ٦، ٧

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْفُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾^١.

ففي الآية إطنابٌ بتكثيرِ الجمل؛ فقد كان يكفي أن يقول موسى عليه السلام جواباً عن قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى﴾، كان يكفي أن يقول: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾، ولكنه زاد في الجواب، تلذذاً بخطاب الله تعالى، فقال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْفُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ وكأنه أجاب عن سؤال مقدر، كأنه قدر أن يقال له: وما تفعل بها؟ فقال معدداً منافعها، وذلك لما لمناجاة الله تعالى من لذة لا تشبهها لذة.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَاكِفِينَ﴾^٢.

ففي قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَاكِفِينَ﴾، إطنابٌ بتكثيرِ الجمل؛ فإن إبراهيم عليه السلام سألهم عن معبودهم، فكان القياس أن يقولوا: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾، ولكنهم زادوا في جوابهم على سؤال إبراهيم عليه السلام: ﴿فَنَظَّلُهَا عَاكِفِينَ﴾، لبيان ما في نفوسهم من الفرح والابتهاج والفخر، بعبادة هذه الأصنام.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ يَمِينُكَ إِذَا لَا رَتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾^٣.

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخْطُّهُ يَمِينُكَ﴾، إطنابٌ فإن الكتابة لا تكون عادةً إلا باليمين، وفائدة الإطناب هنا تأكيد للحقيقة ونفي توهم المجاز، ومثله قولهم: رأيته بعيني، وسمعته بأذني، وقبضته بيدي.

١ - سورة طه: الآية/ ١٧، ١٨

٢ - سورة الشعراء: الآيات/ ٦٩: ٧١

٣ - سورة العنكبوت: الآية/ ٤٨

ومثاله أيضًا قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾^١.

في قوله تعالى على لسان السحرة: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ إطناب؛ فإنهم كان يمكنهم أن يقولوا: (إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقِيَ)، وفائدة الإطناب هنا، بيان اعتزاز السحرة بأنفسهم، وثقتهم في سحرهم، واستطاعتهم على موسى وذلك لأنهم لما أسندوا الفعل لأنفسهم جاءوا بلفظ أتم وأوفى من الفعل الذي أسندوه إليه عليه السلام.

ومثاله أيضًا قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^٢.

ففي قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، إطناب؛ فقد كان يكفي في الجواب أن يقول: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾، وفائدة الإطناب هنا المبالغة في نفي الضلالة، والمبالغة في إثبات الهداية، ردًا على مبالغتهم في وصفهم له بالضلال، فهم قد نسبوا له صورًا كثيرة من الضلال، فناسب ذلك المبالغة بالإطناب في نفي ذلك عن نفسه، ثم وصف نفسه بأشرف الصفات وأجلها وهو كونه رسولًا إلى الخلق من رب العالمين ذكر ما هو المقصود من الرسالة وهو أمران: الأول: تبليغ الرسالة. والثاني: تقرير النصيحة. فقال: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾، ثم وصف نفسه بالعلم المنافي للجهل الذي من آثاره الضلال، فقال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^٣.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ بِحَرِّ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ.....﴾^٤.

١ - سورة طه: الآية/ ٦٥، ٦٦

٢ - سورة الأعراف: الآيات/ ٦٠: ٦٢

٣ - تفسير الرازي (١٤/ ٢٩٦)

٤ - سورة البقرة: الآية/ ٢٦٦

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^١.

ففي الآية إطنابٌ بتكثير الجُمْل؛ لأن هذا المعنى أتى موجزًا في سورة البقرة في قوله: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾^٢.

وفائدة الإطناب هنا بيان أن الملك لا يثبت ولا يدوم بالقوة وحدها، فكم من دول دالت، وكم من ممالك زالت، ولم تغن عنهم كثرتهم شيئًا، وقد شهد التاريخ سقوطًا مروّعًا لكثير من العروش، التي ما كان يظن أحد أن تسقط، وشهد إهيارًا لأمم ما كان يتخيل أحد أنها ستنتهار، ورأى العالم ذل الملوك الذين طغوا وبغوا وعتوا وتجبروا، فمنهم من ذبح كما تُذبحُ الشاة، ومنهم من مات تحت وطأة الأقدام، ومنهم من صُلب ومنهم من عُلق على أعواد المشانق، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾^٣.

وكم من حامل الذكر لا يلقي له أحدٌ بالًا، ولا يعيره أحدٌ التفاتًا، حيزت له الدنيا، وأمسك بمقاليد الأمور، وصار رأسًا في الناس بعدما كان مغمورًا، فالملك بيد الله تعالى يُؤتيه من يشاء وينزعه من يشاء، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

ومثاله أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ^٤.

ففي الآية إطنابٌ بتكثير الجُمْل؛ لأنه كان يكفي في الجواب عن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾، قوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، لذلك أتى

١ - سورة آل عمران: الآية/ ٢٦

٢ - سورة البقرة: الآية/ ٢٤٧

٣ - سورة هود: الآية/ ١٠٢

٤ - سورة آل عمران: الآية/ ١٦٩ : ١٧١

الجواب في سورة البقرة موجزاً؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^١.

وفائدة الإطناب هنا بيان منزلة الذين قتلوا في سبيل الله، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وليس كما يظن بعض الناس من أنهم أموات، وأنهم فرحون بما هم فيه من التَّعِيم، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقدمون عليهم ممن يُقاتل في سبيل الله، لا يخافون مما يقدمون عليه، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم.

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^٢.

ففي قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، إطنابٌ فإن التَّسْبِيحَ فِي عَرْفِ الشَّرْع: تنزيه الله جل وعلا عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله.

وعلى هذا فمعنى: «سَبِّحْ»: نزه ربك جل وعلا عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله.

أي: في حال كونك متلبساً بحمد ربك، أي: بالثناء عليه بجميع ما هو أهله من صفات الكمال والجلال؛ لأن لفظة: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أضيفت إلى معرفة فتعم جميع المحامد من كل وصف كمال وجلال ثابت لله جل وعلا، فتستغرق الآية الكريمة الثناء بكل كمال؛ لأن الكمال يكون بأمرين:

أحدهما: التخلي عن الرذائل، والتنزه عما لا يليق، وهذا معنى التَّسْبِيح.

والثاني: التحلي بالفضائل والاتصاف بصفات الكمال، وهذا معنى الحمد؛ فتم الثناء بكل كمال^٣.

وقيل: المراد بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أي: صل له، فقوله: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، من عطف الخاص على العام، والصلاة تتضمن غاية التنزيه، فيكون المراد بقوله: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، أي: من المصلين، ويكثر في القرآن إطلاق التَّسْبِيح على الصلاة.

١ - سورة البقرة: الآية / ١٥٤

٢ - سورة الحجر: الآية / ٩٧ - ٩٨

٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢ / ٣٢٢)

وفائدة الإطناب هنا بيان أهمية السجود، ويكون هذا أيضًا من باب عطف الخاص على العام.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^١.

فإن قوله تعالى: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾، بعد قوله تعالى: ﴿رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾، من باب عطف العام على الخاص؛ فإنه سبحانه رب كل شيء ومليكه.

القسم الثاني إطناب الزيادة:

إطناب الزيادة يكون بأنواع:

أحدها: دخول حرف فأكثر من حروف التأكيد السابقة في نوع الأدوات وهي: إن وأن ولام الابتداء والقسم وألا الاستفتاحية وأما وما التنبيه وكأن في تأكيد التشبيه ولكن في تأكيد الاستدراك وليت في تأكيد التمني ولعل في تأكيد الترجي وضمير الشأن وضمير الفصل وأما في تأكيد الشرط وقد والسين وسوف والنونان في تأكيد الفعلية ولا التبرئة ولن وما في تأكيد النفي وإنما يحسن تأكيد الكلام بها إذا كان المخاطب به منكراً أو متردداً.^٢

أمثلة إطناب الزيادة:

قول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^٣.

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، أربع تأكيدات، أكد الكلام بـ ﴿إِنَّ﴾، وفيها تأكيدان؛ لأنَّ ﴿إِنَّ﴾، تفيد التكرير مرتين، وإثبات الضمير المتصل في: ﴿إِنَّهُ﴾ (الهاء)، والضمير المنفصل ﴿هُوَ﴾.

وفائدة الإطناب هنا أن فيه ترغيباً للعباد في التوبة، وبيان حب الله تعالى للتوبة وللتائبين.

١ - سورة النمل: الآية / ٩١

٢ - الإتقان في علوم القرآن (٣ / ٢١٧)

٣ - سورة البقرة: الآية / ٣٧

ومنه قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾^١. أكد الله تعالى الموت بثلاث تأكيدات بـ ﴿إِنَّ﴾، وفيها تأكيدان، وتأكيد باللام، وإذا اجتمعت إن واللام كان بمنزلة تكرير الجملة ثلاث مرات، وأكد إثبات البعث باللام. وفائدة الإطناب: أن الله تعالى نَزَّلَ المخاطبين تنزيل من ينكر الموت لتماديهم في الغفلة. قال أبو حيان: بولغ في تأكيد ذلك تنبيها للإنسان أن يكون الموت نصب عينيه ولا يغفل عن ترقبه، فإن مآله إليه فكأنه أكدت جملته ثلاث مرار لهذا المعنى، لأن الإنسان في الحياة الدنيا يسعى فيها غاية السعي، ويؤكد ويجمع حتى كأنه مخلص فيها فنبه بذكر الموت مؤكداً مبالغاً فيه ليقصر، وليعلم أن آخره إلى الفناء فيعمل لدار البقاء، ولم تؤكد جملة البعث إلا بأن لأنه أبرز في صورة المقطوع به الذي لا يمكن فيه نزاع ولا يقبل إنكاراً وإنه حتم لا بد من كيانه فلم يحتج إلى تأكيد ثانٍ.^٢

وقد يقول قائل: لم أكد الله تعالى الموت بتأكيدين، وأكد إثبات البعث تأكيداً واحداً؟

وقد وجد من ينكر البعث ولم نسمع من ينكر الموت؟

والجواب: أن الله تعالى أكد الموت بتأكيدين لما ذكرناه آنفاً، وأكد إثبات البعث تأكيداً واحداً؛ لأنَّ البعث أدلته ظاهرة يراه الإنسان كل يوم في الكون من حوله، ولما كانت أدلته ظاهرة كان جديراً بأن لا ينكر؛ فنزل المخاطبون منزلة غير المنكر حثاً لهم على النظر في أدلته الواضحة.^٣

ومنه قول الله تعالى حكاية عن الرسل في سورة يس: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾^٤.

١ - سورة المؤمنون: الآية / ١٥، ١٦

٢ - البحر المحيط في التفسير (٥٥٣ / ٧)

٣ - الإتقان في علوم القرآن (٢١٧ / ٣)

٤ - سورة يس: الآية / ١٤

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ نوعان من التأكيد، تأكيد ب ﴿إِنَّ﴾ وتأكيد بالجملة الإسمية. فلما كذبهم قومهم قالوا ردًا عليهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾.^١

ففي المرة الثانية زاد التأكيد فأكد الكلام بالقسم وأكد ب ﴿إِنَّ﴾ واللام بالجملة الإسمية وهذا إطناب الزيادة، بدليل قولهم في المرة الأولى: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾، وكان يكفي هذا في المرة الثانية.

وفائدة الإطناب هنا المبالغة في التأكيد لمبالغة المخاطبين في الإنكار حيث قالوا للرسول: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.^٢

ومن إطناب بالزيادة أيضًا: قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ * إلا إبليس أبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ.^٣

في الآية إطناب بالزيادة في قوله: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾، وهو تأكيد معنوي.

وفائدته: رفع توهم المجاز، ودفع ظن عدم شمول الأمر لجميع الملائكة.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَعُدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.^٤

في قوله تعالى: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾، إطناب بالزيادة، ففي غير كلام الله تعالى يكفي أن يقال: (يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا)، للإخبار عن ضيق الصدر.

وفائدة الإطناب هنا بذكر لفظ ﴿حَرَجًا﴾؛ المبالغة في بيان شدة الضيق فإن الحرج هو أشد الضيق، فالله تعالى يجعل قلبه ضيقًا ضيقًا شديدًا ليس فيه منفذ للخير حتى لا يدخله الإيمان عيادًا بالله.

١ - سورة يس: الآية / ١٦

٢ - سورة يس: الآية / ١٥

٣ - سورة الحجر: الآية / ٣٠

٤ - سورة الأنعام: الآية / ١٢٥

ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^١.

في قوله تعالى: ﴿تَكْلِيمًا﴾، إطنابٌ بالزيادة؛ لأن المعنى يتم بقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى﴾.

وفائدة الإطناب هنا بزيادة لفظ ﴿تَكْلِيمًا﴾؛ رفع توهم المجاز، فإن الله تعالى كلم موسى عليه السلام كلامًا حقيقيًا وأكده بقوله: ﴿تَكْلِيمًا﴾؛ فأتى التوكيد لرفع المجاز في الفعل.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾^٢.

ففي قوله تعالى: ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾، إطنابٌ بالزيادة فإن السَّقْفَ لا يكون إلا من فوق، وكان يكفي في غير كلام الله تعالى أن يكون الكلام: (فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ).

وفائدة الإطناب هنا بزيادة قوله تعالى: ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾، بيان أنهم كانوا تحته عندما خرَّ السَّقْفُ لأنه رُبَّمَا خرَّ السَّقْفُ، ولا يكون تحته أحدٌ، فلما قال: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾، دلَّ على أنهم كانوا تحته، أنهم ماتوا تحته لما تهدم عليهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾^٣.

ففي قوله تعالى: ﴿وَرَاءَكُمْ﴾، إطنابٌ بالزيادة فإن الرجوع لا يكون إلا إلى الخلف والوراء، وكان يكفي في غير كلام الله تعالى أن يكون الكلام: (ارْجِعُوا فَالْتَمِسُوا نُورًا).

وفائدة الإطناب هنا بزيادة قوله تعالى: ﴿وَرَاءَكُمْ﴾. أن قوله: ﴿ارْجِعُوا﴾ أمرٌ المراد منه التوبيخ والطرد، وليس الإرشاد والدلالة، أي: ارجعوا إلى الموقف حيث أُعْطِيَ للمؤمنين والمؤمنات النور فَالْتَمِسُوا النورَ هنالك، وقوله تعالى: ﴿وَرَاءَكُمْ﴾، خدعةٌ للمنافقين، كما كانوا يخادعون الله والذين آمنوا، والجزاء من جنس العمل، وتهكم بهم كذلك، كقول الرجل لمن يريد أن يقترب منه: ورائك أوسع لك.

١ - سورة النساء: الآية/ ١٦٤

٢ - سورة النحل: الآية/ ٢٦

٣ - سورة الحديد: الآية/ ١٣

عطف الخاص على العام

ومن أقسام الإطناب ذكر الخاص بعد العام، للتنبيه على فضله حتى كأنه ليس من جنسه، تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات.^١

فائدته:

قال السيوطي: وفائدته التنبيه على فضله حتى كأنه ليس من جنس العام تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات.

وحكى أبو حيان عن شيخه أبي جعفر بن الزبير أنه كان يقول هذا العطف يسمى بالتجريد كأنه جرد من الجملة وأفرد بالذكر تفضيلاً.^٢

أمثلة عطف الخاص على العام:

من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.^٣

عطف قوله تعالى: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، على قوله: ﴿نِعْمَتِيَ﴾، من باب عطف الخاص على العام، والمراد: على عالمي زمانكم، وفائدته: تذكيره بمنته عليهم فإن تفضيل الآباء شرف للأبناء.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾.^٤

فإن جبريل وميكال ملكين كريمين من ملائكة الله المقربين وإفرادهما بالذكر بعد ذكر الملائكة من باب عطف الخاص على العام للتنبيه على مكانتهما، وعظيم فضلتهما.

قال ابن الكثير: وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة، ثم عموم الرسل، ثم حُصِّصا بالذكر؛ لأن السياق في الانتصار لجبريل وهو السفير بين الله

١ - الإيضاح في علوم البلاغة (٣/ ٢٠٠)

٢ - الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٤٠)

٣ - سورة البقرة: الآية/ ١٢٢

٤ - سورة البقرة: الآية/ ٩٨

وأنبأته، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل وليهم، فأعلمهم أنه من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾^٢.

المراد بنقص الثمرات ما يصيبها من الآفات، وعطف نقص الثمرات على نقص الأموال من عطف الخاص على العام، لأن الأموال تشمل الثمرات وغيرها؛ للتنبيه على قيمة الثمرات وأنها من أسباب قوام العيش.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾^٤. عطف إهلاك الحرث والنسل على الإفساد في الأرض من باب عطف الخاص على العام؛ فإن الإفساد في الأرض أعم من ذلك، فيشمل سفك الدماء ونهب الأموال، وهتك الأعراض وغير ذلك، وفائدته التنبيه على خطر إهلاك الحرث والنسل.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾^٥. قال الألوسي: والنعمة إما عامة فعطف ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ﴾، عليها من عطف الخاص على العام، وإما أن تخص بالإسلام ونبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وخصاً بالذكر ليناسب ما سبقه.^٦

ومنه قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾^٧. فإن الصلاة الوسطى هي إحدى الصلوات الخمس، فذكرها بعد الصلوات الخمس من باب عطف الخاص على العام للتنبيه على فضلها، ولمزيد العناية بها، والراجح أنها صلاة

١ - تفسير ابن كثير (٣٤٢ / ١)

٢ - سورة البقرة: الآية / ١٥٥

٣ - انظر فتح البيان في مقاصد القرآن (٣١٩ / ١)

٤ - سورة البقرة: الآية / ٢٠٥

٥ - سورة البقرة: الآية / ٢٣١

٦ - تفسير الألوسي روح المعاني (٥٣٧ / ١)

٧ - سورة البقرة: الآية / ٢٣٨

العصر؛ فَعَنْ عَلِيٍّ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: شَعَلُونَا عَنْ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةِ الْعَصْرِ، مَلَأَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا. ثُمَّ صَلَّاهَا بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ»^١.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^٢.

فإن عطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الدعوة على الخير من باب عطف الخاص على العام، فإن الدعوة على الخير أعم من أن تكون مجرد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإفراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالذكر إظهاراً لشرفه، فإنه القطب الأعظم لهذا الدين، والمهم الذي ابتعث الله له النبيين.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^٣.

فإن قول الله تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا﴾، بعد لأمر بالتقوى من باب عطف الخاص على العام؛ فإن التقوى تشتمل على فعل الطاعات وترك المحرمات، فهي أعم من السمع والطاعة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾^٤.

فسر بعضهم النكث بالارتداد بقرينة ذكره في مقابلة: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾؛ أي: قدحوا فيه بأن عابوه وقبحوا أحكامه علانية؛ فيكون من عطف الخاص على العام؛ وفائدته التنبيه على خط الطعن في دين الله تعالى، وأنه موجب من موجبات القتال.

١ - رواه البخاري - كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، حديث رقم: ٢٩٣١، ومسلم -

كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الدليل لمن قال: الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، حديث رقم: ٦٢٧

٢ - سورة آل عمران: الآية / ١٠٤

٣ - سورة المائدة: الآية / ١٠٨

٤ - سورة التوبة: الآية / ١٢

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعَلِ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾^١.

فإن فعل الخيرات أعم من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وعطف إقام الصلاة وإيتاء الزكاة من باب عطف الخاص على العام.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^٢.

فإن ذكر محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، بعد ذكر النبيين، من باب عطف الخاص على العام؛ للتنبيه على فضلهم ومكانتهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^٣.

قال ابن كثير: نهان أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وهذا من باب عطف العام على الخاص^٤.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾^٥.

فإن الجبال داخلية في جملة الأرض، لكن لفظ الأرض عام، والجبال خاص، وفائدته ههنا تعظيم شأن الأمانة المشار إليه، وتفخيم أمرها^٦.

١ - سورة الأنبياء: الآية / ٧٣

٢ - سورة الأحزاب: الآية / ٧

٣ - سورة الأحزاب: الآية / ٣٣

٤ - تفسير ابن كثير (٦ / ٤١٠)

٥ - سورة الأحزاب: الآية / ٧٢

٦ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢ / ١٦١)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾.^١

فإن ذكر الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، بعد ذكر الدواب وهي: كل ما يدب على الأرض من باب عطف الخاص على العام.

قال ابن كثير: قال هناك: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، وقال ها هنا: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنويع على فاكهة، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم؛ ولهذا فسر قوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾.^٣

عطف الفواحش على كبائر الإثم من عطف الخاص على العام؛ فإن الفواحش ما عظم قبحه من الكبائر، والكبائر أعم منها بكثير.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.^٤

قال الألوسي: وعطف: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، على: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، من عطف الخاص على العام تعظيماً لهم بعدد كآتهم جنس آخر، ولذا أعيد الموصول في النظم الكريم.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.^٦

فإن عطف الروح على الملائكة من باب عطف الخاص على العام فإن المراد بالروح هنا هو جبريل عليه السلام.

١ - سورة فاطر: الآية / ٢٨

٢ - تفسير ابن كثير (٥٠٧ / ٧)

٣ - سورة الشورى: الآية / ٣٧

٤ - سورة المجادلة: الآية / ١١

٥ - تفسير الألوسي روح المعاني (٢٢٣ / ١٤)

٦ - سورة المعارج: الآية / ٤

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾^١.

فإن عطف ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر على لفظ: ﴿آلِهَتَكُمْ﴾، من باب عطف الخاص على العام، فإنهم اتخذوهم آلهة من دون الله تعالى.

ومنه قوله تعالى: ﴿تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾^٢.

تقدم أن المراد بالروح هو جبريل عليه السلام، فيكون من باب عطف الخاص على العام.

١ - سورة نوح: الآية / ٢٣

٢ - سورة القدر: الآية / ٤

عطف العام على الخاص

ومن أقسام الإطناب عطف العام على الخاص، وهو مقابل عطف الخاص على العام.

فائدته:

وفائدته: التعميم.

منه قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^١.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، على: ﴿الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ﴾، من عطف العام على الخاص، أي: وأهل الأرض كلهم قابلون للإهلاك، والمسيح ابن مريم منهم فحكمه كحكمهم سواء.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾^٢.

الأمر بالعبادة بعد الأمر بالركوع والسجود من عطف العام على الخاص؛ لأن العبادة أعم من الصلاة ذات الركوع والسجود، فإن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأول والأفعال الظاهرة والباطنة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^٣.

الأمر بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، أعم من الإقرار في البيوت وترك التبرج وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم يدخل فيها امتثال كل أمر واجتناب كل نهي، فهي من عطف العام على الخاص.

١ - سورة المائدة: الآية/ ١٧

٢ - سورة الحج: الآية/ ٧٧

٣ - سورة الأحزاب: الآية/ ٣٣

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^١.

ومنه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾^٢.

الأنعام هي الإبل والبقر والغنم، والذي يركب منها الإبل فقط، ويؤكل منها جميعاً، وتكون (منها) في الموضع الأول تبعيضية، و (منها) في الموضع الثاني بيانية، فهي من عطف العام على الخاص.

ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِّنَّا وَلَا أَذَى﴾^٣.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾^٤.

عطف الأذى على المنِّ من باب عطف العام على الخاص؛ فإن الأذى أعم من المنِّ. قال الراغب: الأظهر الأكثر أنه معطوف على قوله: ﴿مَنَّا﴾، وهو أعم منه لأن كل مَنٍّ أذى، وليس كل أذى مَنَّا.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾^٦.

قيل المراد ب (ذكر الله)، هنا القرآن، و ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾، قيل: الحلال والحرام فيشمل ذلك القرآن والسنة، فيمكن من عطف العام على الخاص.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^٧.

١ - سورة الأحزاب: الآية / ٣٣

٢ - سورة غافر: الآية / ٧٩

٣ - سورة البقرة: الآية / ٢٦٢

٤ - سورة البقرة: الآية / ٢٦٤

٥ - تفسير الراغب الأصفهاني (١ / ٥٥١)

٦ - سورة الحديد: الآية / ١٦

٧ - سورة الحجر: الآية / ٨٧

بَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ السَّبْعَ الْمَثَانِي هِيَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ»^١.

ووردَ عن عبد الله بن مسعود، وابن عباس وغيرهما أن المراد بالسبع المثاني: السبع الطُّول، فيكون عطف القرآن العظيم على السبع المثاني من عطف العام على الخاص إذ المراد بالسبع إما الفاتحة وإما الطوال، فكأنه ذكر مرتين بجهة الخصوص ثم باندراجها في العموم^٢.

ومنه قوله تعالى: ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾^٣.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾، إشارة إلى آيات تلك السورة، وقيل: إشارة إلى مجموع ما نزل من القرآن، وقوله: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، إشارة إلى القرآن كله، وعطفه على: ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾، من عطف العام على الخاص^٤.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجَ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجَ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾^٥.

فإن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾، من عطف العام على الخاص؛ لأنه يعم كل ما تقدم وغيره^٦.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^٧.

١ - رواه البخاري - كتاب التفسير، سورة الحجر، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾، حديث رقم: ٤٧٠٤

٢ - انظر السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٢/ ٢١١)

٣ - سورة الرعد: الآية/ ١

٤ - انظر التفسير المظهر (٥/ ٢١٢)

٥ - سورة يونس: الآية/ ٣١

٦ - انظر فتح القدير للشوكاني (٢/ ٥٠٤)

٧ - سورة الأنفال: الآية/ ٣٢

فإن العذاب الأليم أعم من أن يكون إمطارًا بالحجارة من السماء، فهو من عطف العام على الخاص؛ فإن العذاب يكون بالحجارة وغيرها.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^١.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، أمرٌ بالتسبيح والصلاة، وعطف عليه الأمر بعبادة الله تعالى، والعبادة أعم وأشمل من التسبيح والصلاة، فهو من عطف العام على الخاص.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾^٢.

المضطر هو المكروب الذي مسه الضر البالغ، والله تعالى هو الذي يجيب دعوة المضطر، وقد عطف على إجابة المضطر أنه: ﴿يَكْشِفُ السُّوءَ﴾، وكشف السوء يكون عن المضطر وغير المضطر؛ فالكلام من عطف العام على الخاص.

ومنه قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾^٣.

ذكر المؤمنين والمؤمنات بعد ذكر الوالدين ومن دخل بيته من المؤمنين من عطف العام على الخاص.

١ - سورة الحجر: الآية/ ٩٨، ٩٩

٢ - سورة النمل: الآية/ ٦٢

٣ - سورة نوح: الآية/ ٢٨

التَّنْذِيلُ

ومن أقسام الإطناب التذيل، قال أبو هلال العسكري: وللتذيل في الكلام موقع جليل، ومكان شريف خطير؛ لأن المعنى يزداد به انشراحًا والمقصد اتضاحًا. وقال بعض البلغاء: للبلاغة ثلاثة مواضع؛ الإشارة، والتذيل، والمساواة.^١

حدُّ التَّنْذِيلِ:

التَّنْذِيلُ لُغَةً: جعل الشيء ذيلًا للآخر.^٢

واصطلاحًا: هو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتأكد عند من فهمه.^٣

وقيل: هو العبارة عن المعنى بألفاظ تزيد عليه.^٤

وقيل: أن يؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول تحقيقًا لدلالة منطوق الأول أو مفهومه؛ ليكون معه كالدليل ليظهر المعنى عند من لا يفهم ويكمل عند من فهمه.^٥

أقسامُ التَّنْذِيلِ:

التَّنْذِيلُ ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: ما يجري مجرى المثل.

الثاني: ما لا يجري مجرى المثل، وكلاهما يُؤتى به بعد تمام الكلام ليظهر المعنى عند من لا يفهم ويكمل عند من فهمه.

١ - الصناعتين: الكتابة والشعر (ص: ٣٧٣)

٢ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٦٨)

٣ - الصناعتين: الكتابة والشعر (ص: ٣٧٣)

٤ - سر الفصاحة (ص: ٢١٩)

٥ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٦٨)

أمثلة ما يجري مجرى المثل:

مثال القسم الأول: وهو ما يجري مجرى المثل؛ قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، فجملة: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، أتت بعد تمام الكلام تحقيقاً لدلالة منطوق الأول، وهي كذلك جارية مجرى المثل.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾، فجملة: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾، أتت بعد تمام الكلام تحقيقاً لدلالة منطوق الأول، وهي كذلك جارية مجرى المثل.

أي: هل يجازى ذلك الجزاء الذي يستحقه الكفور إلا الكفور فإن جعلنا الجزاء عاما كان الثاني مفيدا فائدة زائدة.^١

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾^٢. فجملة: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ تذييل؛ لأنها أتت بعد تمام الكلام؛ تحقيقاً لدلالة منطوق الأول ولاشتمالها على معنى زائد وهو سعة علم الله تعالى، وهي كذلك جارية مجرى المثل.

أمثلة ما لا يجري مجرى المثل:

ومثال القسم الثاني وهو ما لا يجري مجرى المثل؛ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ﴾^٣.

١ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٦٩)

٢ - سورة فاطر: الآية / ١٣، ١٤

٣ - سورة التوبة: الآية / ١١١

في هذه الآية تذييلان: الأول: وقع في درج الكلام لا في الفاصلة، وهو ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ﴾. والثاني: وقع في الفاصلة: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، وكلا التذييلين أتى بعد تمام الكلام تحقيقاً لدلالة منطوق الأول وتوكيداً له.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ طَأَّ آتِينَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَاسِقِينَ﴾^١.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَاسِقِينَ﴾، تذييل لا يجري مجرى المثل، مؤكد لمعنى: ﴿الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^٢.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾، تذييل لا يجري مجرى المثل، مؤكد لمعنى: ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾.

ولما كان التذييل عبارة عن كلام مستقل أتى به بعد تمام الكلام الأول تحقيقاً لدلالة منطوق الأول، فنهاية الآية هنا عبارة عن جملة تلخص مجمل الآية وتزيد معناها وضوحاً.

والتذييل يقع في الغالب في نهاية الآية، وربما وقع في وسط الآية ولكنه قليل، وهذه الجملة أعني (التذييل) أحياناً تكون مثل المثل السائر بين الناس وقد تتخذ مثلاً بعد ذلك، وهذا معنى قولهم تجري مجرى المثل، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾^٣.

والذي يجري مجرى المثل مثاله قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^٤.

١ - سورة الأنبياء: الآية / ٧٤

٢ - سورة القصص: الآية / ٤

٣ - سورة فاطر: الآية / ١٤

٤ - سورة الإسراء: الآية / ٨١

فجملته: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾. تم عندها الكلام، والكلام الذي بعدها وهو: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، أتى بعد تمام الكلام ليزيده وضوحًا ولما كان في ذيل الآية سمي تذييلًا ولما كان يشبه المثل لأنه وجيز قيل عنه أنه يجري مجرى المثل.

ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾، كلام تام وضح منه المراد ثم أتت جملة: ﴿وَهَلْ تُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾، بعد تمام الكلام الأول، لتزيده وضوحًا، ولما كانت في ذيل الآية سمي ذلك القدر من الآية تذييلًا ولما كان يشبه المثل لأنه وجيز قيل عنه أنه يجري مجرى المثل.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾. كلام تام وضح منه المراد ثم أتت جملة: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ بعد تمام الكلام الأول، لتزيده وضوحًا، ولما كانت في ذيل الآية سمي ذلك القدر من الآية تذييلًا ولما كان يشبه المثل لأنه وجيز قيل عنه أنه يجري مجرى المثل.

الاحتراسُ

ومن أقسام الإطناب الاحتراس، وهو التحفظ سمي بذلك؛ لأن فيه التوقى والاحتراز عن توهم خلاف المقصود، ويسمى التكميل؛ لأن فيه تحفظ الكلام عن نقصان الإبهام فناسب التسمية بالتكميل.^١

حدُّ الاحتراس:

الاحتراسُ لغةً: الاحتراز والتحفظ.

قال ابن سيده: احتَرس منه: احتَزر.^٢

واصطلاحًا: الاحتراس: هو أن يكون الكلام محتملاً لشيء بعيد فيؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال.^٣

أمثلةُ الاحتراس:

قول الله تعالى: ﴿سَأَلْتُكَ يَدَاكَ فِي جَنَّتِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾.^٤

احتَرس سبحانه بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ عن أن يكون ذلك بسبب برصٍ أو مرضٍ.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.^٥

احتَرس سبحانه بقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ عن أن يكون ذلك لضعفهم؛ فإنه لو اقتصر على وصفهم بالدلالة لتوهم أن ذلك سببه الضعف، فلما ذكر عزهم على الكافرين علم أنها منهم تواضع وعطف.

١ - الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (٢/ ٩٢)، وانظر حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (٢/ ٧١٢)

٢ - المحكم والمحيط الأعظم (٣/ ١٨٢)

٣ - البرهان في علوم القرآن (٣/ ٦٤)

٤ - سورة النمل: الآية/ ١٢

٥ - سورة المائدة: الآية/ ٥٤

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنَّ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^١.

احترس سبحانه بقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. عن أن يكون ذلك عَنْ قَصْدٍ مِنْهُمْ وَبَيَانُ أَنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ ضَرَرَ مُسْلِمٍ.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^٢.

احترس سبحانه بقوله: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾، قطعاً لتوهم اختصاص ملكه بالبلدة المشار إليها، بل له كُلُّ شَيْءٍ، وتنبهها على أن الإضافة إنما قصد بها التشريف لهذه البلدة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتُ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^٣.

لَمَّا قَالَ سبحانه حكايةً عن موسى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾. [مريم: ٥٢]، فلما نفى سبحانه عن رسوله أن يكون بالمكان الذي قضى لموسى فيه الأمر عرف المكان بالغربي ولم يقل في هذا الموضع الأيمن كما قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ فاحترس سبحانه بقوله: ﴿بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ﴾ أن ينفي عنه كونه بالجانب الأيمن أو يسلب عنه لفظاً مشتقاً من الأيمن، تعليماً للأمة الأدب في الخطاب مع النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾^٤.

ذكر سبحانه الكلام في الكهولة مع أَنَّهُ لَا إِعْجَازَ فِيهِ؛ احْتِرَاسًا مِنْ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ لَا يَعِيشُ وَلَا يَتِمَادَى بِهِ الْعُمُرُ إِلَى الْكُهُولَةِ فَقَالَ: ﴿فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ لذلك.

١ - سورة الفتح: الآية/ ٢٥

٢ - سورة النمل: الآية/ ٩١

٣ - سورة القصص: الآية/ ٤٤

٤ - سورة آل عمران: الآية/ ٤٦

قلنا: إِنَّ الْإِحْتِرَاسَ: هُوَ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ مُحْتَمَلًا لِشَيْءٍ بَعِيدٍ فَيُؤْتَى بِمَا يَدْفَعُ ذَلِكَ الْإِحْتِمَالَ.

يعني قد يفهم بعض الناس من الكلام أمرًا بعيدًا غير مراد لولا ذكر جملة في الآية تنبه على المقصود وتوضح المراد، يحترس بها عن المعنى البعيد أنه غير مراد ولا هو مقصود من الكلام.

ومنه قوله تعالى: ﴿اسْأَلْكَ يَدَّكَ فِي جَنِّكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾^١.

قد يقول قائل أصيبت يده بمرض مثل البرص أو البهاق، فدفع الله تعالى هذا التوهم الذي يمكن أن يقع لبعض الناس بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾، فجملة: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ تبين أن تلك معجزة من الله وليس مرضا أو عيبا في اليد.

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾^٢.

ربما يتوهم بعض الناس من الكلام أن سُلَيْمَانَ وَجُنُودَهُ فعلوا هذا قاصدين تحطيم النمل وتدمير بيوتهم، لقوة جيش سليمان واستهانتهم ببعض المخلوقات، فدفع هذا التوهم بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، لبيان أن سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عَدْلِهِ وَفَضْلِهِ وَفَضْلِ جُنُودِهِ لَا يَحْطِمُونَ نَمْلَةً فَمَا فَوْقَهَا وَلَا يَظْلَمُونَ أَحَدًا مَعَ قُوَّتِهِمْ.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^٣.

ربما يتوهم بعض الناس من الكلام أن وصف هؤلاء الذين يحبهم الله أنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن هذا الذل للمؤمنين سببه أنهم ضعفاء، فدفع الله تعالى هذا التوهم بقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فهم ليسوا ضعفاء بل أقوياء بدليل أنهم ﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أما مع المؤمنين فهم رحماء متواضعون رفقاء متعاطفون.

١ - سورة النمل: الآية / ١٢

٢ - سورة النمل: الآية / ١٨

٣ - سورة المائدة: الآية / ٥٤

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾^١.

ربما يتوهم بعض الناس من قوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾. أنهم صبروا لغرض دنيوي مثل المنصب أو الجاه أو المال أو حسن الثناء عند الناس فدفع الله تعالى هذا التوهم بقوله: ﴿ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾. ليبين أن صبرهم كان لله وابتغاء وجهه لا لشيء آخر.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾^٢. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾. احتراس من أن تكون التولية تولية منهزمين لا تولية متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾^٣. فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾. احتراس عن زوجة الدعوى، فإنه ليس من الصلب، فأما الابن من الرضاعة، فممنزلة ابن الصلب شرعاً، بقوله عليه السلام في الصحيحين: «حَرِّمُوا مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»^٤.

١ - سورة الرعد: الآية/ ٢٢

٢ - سورة آل عمران: الآية/ ١١١

٣ - سورة النساء: الآية/ ٢٣

٤ - انظر تفسير ابن كثير، والحديث رواه البخاري- كتاب الأدب، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم تربت يمينك وعقري حلقى، حديث رقم: ٦١٥٦، ومسلم- كتاب الرضاع، باب تحريم الرضاعة من ماء الفحل، حديث رقم: ١٤٤٥، عن عائشة رضي الله عنها.

الاعتراضُ

ومن أقسام الإطناب الاعتراضُ، من أساليب القرآن البلاغية وهو ما يسميه النحاة بالجملة المعتضة، ووقعه في الكلام جليل، وأثره في النظم بديع.

حدُّ الاعتراض:

الاعتراض لغة: الانتصاب والمنع.

قال الخليل: اعترض الشيء، أي: صار عارضاً كالخشبة المعتضة في النهر. واعترض عرضي، إذا وقع فيه.^١

واصطلاحاً: أن يؤتى في أثناء الجملة بكلام فاصل، يتم الغرض الأصلي بدونه ولا يفوت بفواته لنكتة.

قال الزركشي: هو أن يؤتى في أثناء كلام أو كلامين متصلين معنى بشيء يتم الغرض الأصلي بدونه ولا يفوت بفواته فيكون فاصلاً بين الكلام والكلامين لنكتة.

وقيل: هو إرادة وصف شيئين الأول منهما قصداً والثاني بطريق الانجرار وله تعليق بالأول بضرب من التأكيد.

وعند النحاة جملة صغرى تتخلل جملة كبرى على جهة التأكيد.^٢

أسباب الاعتراض:

للاعتراض أسباب منها:

١ - التقرير:

ومثاله قول الله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾.^٣

١ - العين (١/ ٢٧٣)

٢ - البرهان في علوم القرآن (٣/ ٥٦)

٣ - سورة يوسف: الآية/ ٧٣

فجملته: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾، اعتراضٌ بين قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾، والمُرَادُ بهذا الاعتراضِ تقريرُ إثباتِ البراءةِ مِنْ تُهْمَةِ السَّرِقَةِ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ^١.

فجملته: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، اعتراضٌ بين قولها: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾، وقولها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾.

والمُرَادُ بهذا الاعتراضِ: تقريرُ إثباتِ أن الملوك إذا دخلوا قرية من القرى خربوا مبانيها، وغيروا مغانبيها، وأتلفوا أموالها، وفرقوا شمل أهلها وأهانوا أشرافها، وحطوا مراتبهم، فصاروا عند ذلك أذلة وإنما يفعلون ذلك لأجل أن يتم لهم الملك، وتستحكم لهم الوطأة وتتقرر لهم في قلوبهم المهابة.^٢

٢ - التَّنْزِيهِ:

ومثاله قول الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾^٣.

فجملته: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، اعتراضٌ بين قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾، والغرضُ منه التَّنْزِيهِ والتَّعْظِيمُ لِلَّهِ تَعَالَى، وفيه الشَّانَعَةُ عَلَى مَنْ جَعَلَ الْبَنَاتِ لِلَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾^٤.

فجملته: ﴿تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾، اعتراضٌ بين قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾، والغرضُ منه التَّنْزِيهِ والتَّعْظِيمُ لِلَّهِ تَعَالَى، وفيه التَّشْنِيعُ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَوَلَدًا.

١ - سورة النمل: الآية / ٣٤، ٣٥

٢ - فتح القدير للشوكاني (١٥٩ / ٤)

٣ - سورة النحل: الآية / ٥٧

٤ - سورة الجن: الآية / ٣

٣ - التَّبَرُّكُ:

ومثاله قول الله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ﴾^١.
فجملة: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، اعتراضٌ بين قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾، وقوله تعالى: ﴿آمَنِينَ﴾. وفائدة الاعتراض هنا التَّبَرُّكُ.
ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ﴾^٢.

فجملة: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، اعتراضٌ بين قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾، وقوله تعالى: ﴿آمَنِينَ﴾. وفائدة الاعتراض هنا التَّبَرُّكُ.

٤ - التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ:

ومثاله قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^٣.
فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، جملةٌ معترضةٌ بين المعطوف، وهو قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، وَالْمَعْطُوفُ عليه وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾. والغرض منها التَّهْدِيدُ بهتك أَسْتَارِهِمْ، والوعيدُ بعقابهم.
ومنه قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعُهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^٤.

فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، جملةٌ معترضةٌ، الغرض منها التَّهْدِيدُ والوعيدُ للمنافقين، بأن حالهم لا يخفى على الله تعالى.
قال ابن عاشور: وقوله: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، اعتراضٌ للتذكير بأن المقصود التمثيل لحال المنافقين في كفرهم لا لمجرد التفنن في التمثيل.^٥

١ - سورة الفتح: الآية / ٢٧

٢ - سورة يوسف: الآية / ٩٩

٣ - سورة البقرة: الآية / ٧٢

٤ - سورة البقرة: الآية / ١٩

٥ - التحرير والتنوير (١ / ٣١٩)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^١.

فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾. جملةٌ معترضةٌ بينَ قوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. وهي تهديدٌ ووعدٌ لهؤلاء الكفار على كفرهم وسوء أعمالهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾^٢.

فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾. جملةٌ معترضةٌ بينَ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾. وهي تهديدٌ ووعدٌ لهؤلاء الكفار على كفرهم وعلى ما يتصفون به من البخل وكتمان فضل الله تعالى وما يتصفون به من الرياء.

٥ - بَيَانُ سَعَةِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ:

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾^٣.

فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾. جملةٌ معترضةٌ بينَ قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. والغاية منه بَيَانُ سَعَةِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ.

١ - سورة النساء: الآية/ ٣٩، ٤٠

٢ - سورة النساء: الآية/ ٣٨

٣ - سورة الأنعام: الآية/ ٣٨

وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَفْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^١.

فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾. جملةٌ معترضةٌ بين قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَفْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. والغايةُ مِنْهُ بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

٦- تَمْجِيدُ اللَّهِ تَعَالَى:

وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾^٢.

فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. جملةٌ معترضةٌ بين المبتدأ وهو لفظُ الجلالة: ﴿اللَّهُ﴾، وخبره وهو قوله تعالى: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. والغايةُ مِنْهُ تَمْجِيدُ اللَّهِ تَعَالَى.

٧- المَدْحُ وَالشَّائ:

وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^٣.

قال ابن عاشور: فقوله: وإنه في الآخرة إلى آخره اعتراض بين جملة اصطفيناه وبين الظرف وهو قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾^٤.

١ - سورة الأعراف: الآية/ ٥٧

٢ - سورة النساء: الآية/ ٨٧

٣ - سورة البقرة: الآية/ ١٣٠، ١٣١

٤ - التحرير والتنوير (١/ ٧٢٦)

٨- التَّأْكِيدُ:

مثاله قول الله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾^١.

هذه الآية فيها اعتراضان، الأول قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ﴾، اعتراض بين: الْقَسَمِ وَهُوَ قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، وَجَوَابِهِ وَهُوَ قوله تعالى: ﴿عَظِيمٌ﴾.

وَالْاِعْتَرَاظُ الثاني: قول الله تعالى: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ بَيْنَ: الصِّفَةِ وَهِيَ قول الله تعالى: ﴿عَظِيمٌ﴾، وَالْمَوْصُوفِ وَهُوَ قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ﴾.

وَالْمُرَادُ من الاعتراض تَعْظِيمُ شَأْنِ مَا أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ مَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَتَأْكِيدُ إِجْلَالِهِ فِي الثُّقُوسِ لَا سِيَّمَا بِقَوْلِهِ: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾.

وَمِنْ ذَلِكَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ هُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ.....﴾^٢.

فإنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، اعتراض بين إِنَّ وَاسْمِهَا وَهُوَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وخبرها وهو قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ.....﴾.

قال ابن عطية: ونحو هذا من الاعتراض قول الشاعر:

إِنَّ الْخُلَيْفَةَ إِنَّ اللَّهَ أَلْبَسَهُ ***** سِرْبَالِ مُلْكٍ بِهِ تُرْجَى الْخَوَاتِيمُ^٣

وفائدة الاعتراض: تأكيد المعنى، والتذكير بأفضال الله، والتنبيه على حسن جزائه.

وَمِنْهُ قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾^٤.

١ - سورة الواقعة: الآية/ ٧٥ - ٨٠

٢ - سورة الكهف: الآية/ ٣٠، ٣١

٣ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٥١٤)

٤ - سورة محمد: الآية/ ٢

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جملة معترضة بين المُبتدأ، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، وبين خبره وهو قوله: ﴿كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

وفائدة الاعتراض: تأكيد حقيقة هذا المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وتقرير كماله وصدقه؛ لكونه ناسحاً لا يُنسخ.

٩- تخصيص أحد المذكورين بزيادة التأكيد:

مثاله قول الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾^١.

فجملة: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾، اعتراض بين قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾، وبين الموصى به وهو قوله تعالى: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

وفائدة الاعتراض تذكير الولد بما كابدته أمه من المشقة في حمله وفصاله فذكر الحمل والفصال يفيد زيادة التوصية بالأم لتحملها من المشاق والمتاعب في حمل الولد ما لا يتكلفه الوالد.^٢

١٠- زيادة الرد على الخصم:

مثاله قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ* فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^٣.

فجملة: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، فيها اعتراض بين المعطوف وهو قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، والمعطوف عليه وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾.

١ - سورة لقمان: الآية / ١٤

٢ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٥٨)

٣ - سورة البقرة: الآية / ٧٢، ٧٣

وفائدته أن يقرر في أنفس المخاطبين أن تدارؤ بني إسرائيل في قتل تلك الأنفس لم يكن نافعاً لهم في إخفائه وكتمانه لأن الله تعالى مظهر لذلك ومخرجه ولو جاء الكلام خالياً من هذا الاعتراض لكان تقديره: (وإذ قتلتم أنفساً فادارأتم فيها فقلنا اضربوه ببعضها....)^١.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^٢.

فجملة: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، اعتراضٌ بين قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وفائدة الاعتراض هنا: تنفيذ دَعْوَاهُمْ وَالرَّدُّ عَلَى افترائهم عَلَى الله تعالى بادعائهم ما ليس لهم، وتقولهم عَلَى الله تعالى.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١]؛ فجملة: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ﴾ اعتراضٌ بين إِذَا الشرطية وفعل الشرط من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾، وَجَوَابُهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وفائدة الاعتراض: الجوابُ عَنْ دَعْوَاهُمْ وافترائهم عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مُفْتَرٍ بسبب نسخ بعض الآيات، فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا هُوَ أَصْلَحُ لِحَلِّقِهِ فِيمَا يُعَيَّرُ وَيُبَدَّلُ مِنْ أَحْكَامِهِ.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]، فجملة: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾، اعتراضٌ بين اسمٍ مَا وَهُوَ قوله تعالى: ﴿أَنْتَ﴾، وَخَبَرُهَا وَهُوَ قوله تعالى: ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾.

وفائدة الاعتراض: الجوابُ عَنْ دَعْوَاهُمْ وافترائهم عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَاهِنٌ أَوْ مَجْنُونٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى نَفِي الكهانة والجنون عنه ثم إنه تعالى قرن بهذه الدعوى ما يكون

١ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٥٩)

٢ - سورة البقرة: الآية / ١١١

كالدلالة القاطعة على صحتها وذلك لأن قوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ يدل على أن نعم الله تعالى كانت ظاهرة في حقه من الفصاحة التامة والعقل الكامل والسيره المرضية، والبراءة من كل عيب، والاتصاف بكل مكرمة وإذا كانت هذه النعم محسوسة ظاهرة فوجودها ينافي حصول الجنون، فالله تعالى نبه على هذه الدقيقة لتكون جارية مجرى الدلالة اليقينية على كونهم كاذبين في قولهم له: إنه مجنون.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾.^٢

فجملة: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾، اعتراض بين اسم ما وهو قوله تعالى: ﴿أَنْتَ﴾، وخبرها وهو قوله تعالى: ﴿بِمَجْنُونٍ﴾، والمعنى: انتفى عنك الجنون بنعمة ربك كما يقال: أنت بحمد الله عاقل، وأنت بحمد الله لست بمجنون، وأنت بنعمة الله فهم، وأنت بنعمة الله لست بفقير، ومعناه أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت، والصفة المذمومة إنما زالت بواسطة إنعام الله ولطفه وإكرامه، وقال عطاء وابن عباس: يريد بنعمة ربك عليك بالإيمان والنبوة.^٣

وفائدة الاعتراض: الجواب عن دعوى كفار مكة وافترائهم على النبي صلى الله عليه وسلم عداوة وحسدًا، أنه مجنون.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.^٤

فجملة: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾، معترضة بين الشرط وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، والجزاء وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، كقولك: مَنْ أَحْسَنَ إِلَى زَيْدٍ لَا أَحَقَّ مِنْهُ بِالْإِحْسَانِ، فالله مُثِيبُهُ.

وفائدة الاعتراض: الجواب عن دعوى مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وأن من يكون هذا حاله فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ومن كان هذا حاله فهو كافر ولا يُفْلِحُ الكافرون.

١ - تفسير الرازي (٦٠٠ / ٣٠)

٢ - سورة القلم: الآية / ٢

٣ - تفسير الرازي (٦٠٠ / ٣٠)

٤ - سورة المؤمنون: الآية / ١١٧

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾^١.

وجملة: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا...﴾، إلى آخره معترضة بين جملة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ.....﴾، وبين جملة: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ.....﴾^٢.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^٣.

وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ.....﴾، جملة معترضة بين جملة ﴿وَاتَّبِعُوا﴾، وبين قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ وقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، جملة معترضة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^٤.

فإنَّ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾. جملة معترضة بين قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

١ - سورة البقرة: الآية/ ٩٤، ٩٥

٢ - سورة البقرة: الآية/ ٩٧

٣ - سورة البقرة: الآية/ ١٠٢

٤ - سورة البقرة: الآية/ ١١٢

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فُضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَأْلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^١.

فإنَّ قوله تعالى: ﴿كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾. جملة معترضة بين قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فُضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَأْلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧]؛ فجملة: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه.

وفائدة الاعتراض: أن الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه بين لهم أن تسبيحهم الله لنفعهم لا لنفع يعود على الله فعليهم أن يحمدا الله إذا سبحوه.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^٣.

فجملة: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾، كلام معترض بين قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا﴾. وقولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

فيكون هذا من كلام الله تعالى كلاماً معترضاً بين كلامها.

وقرأ ابنُ عامرٍ، وشعبة، ويعقوبُ: بِضَمِّ التَّاءِ، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾

فجملة: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾، كلام معترض بين قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا﴾. وقولها: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

فالكلام كله من كلام أمِّ مريم، وكأَنَّهَا تخاطبُ نفسها بقولها.

وفائدة الاعتراض: تسليَةُ النفس عن الذِّكْرِ، والتسليم لأمر الله تعالى.

١ - سورة النساء: الآية/ ٧٣

٢ - تفسير الرازي (٨٨ / ٢٥)

٣ - سورة آل عمران: الآية/ ٣٦

قال أبو حيان: وأن علم الله وسابق قدرته وحكمته يحمل ذلك على عدم التحسر والتحذر على ما فاتني من المقصد، إذ مراده ينبغي أن يكون المراد، وليس الذكر الذي طلبته ورجوته مثل الأنثى التي علمها وأرادها وقضى بها. ولعل هذه الأنثى تكون خيرا من الذكر.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ...﴾.^٢

جملة: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾، معترضة بين جملة: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾، وما اتصل بها، وبين الجملة المفرعة عليها وهي: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾ الآية. ومناسبة الاعتراض ما جرى في الكلام الذي قبلها من منع أخذ العوض عن الطلاق، إلا في حالة الخوف من ألا يقيما حدود الله، وكانت حدود الله مبينة في الكتاب والسنة، فجاء بهذه الجملة المعترضة تبيننا لأن منع أخذ العوض على الطلاق هو من حدود الله.^٣

١ - انظر البحر المحيط في التفسير (١١٧/٣)

٢ - سورة البقرة: الآية/ ٢٢٩، ٢٣٠

٣ - التحرير والتنوير (٤١٣/٢)

وضع الظاهر موضع المضمَر

وضع الظاهر موضع المضمَر، من بديع البلاغة، وعجيب النظم، ومن المحسنات البديعية، يضيف على الكلام رونقاً وجمالاً.

من ذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^١.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمَر، وأصله: (فأنزلنا عليهم)، وفائدته: بيان أن سبب إنزال الرجز عليهم من السماء إنما هو ظلمهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^٢.

قوله تعالى: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمَر، وأصله: (فلعنة الله عليهم)، وفائدته: بيان أن الكفر سبب اللعنة.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾^٣.

قوله تعالى: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾، وضع الظاهر موضع المضمَر، وأصله: (فتذكرها الأخرى)، وفائدته: أنه لا يستقيم في المعنى إلا كذلك، ألا ترى أنه إذا قال: أن تضل إحداها فتذكرها الأخرى، وجب أن يكون ضمير المفعول عائداً على الضالة متعيناً لها كما إذا قلت: جاءني رجلا وضربته، يتعين أن يكون الجائي هو المضروب وذلك محل بالمعنى المقصود، لأنها قد تكون الضالة الآن في الشهادة وهي الذاكرة فيها في زمان آخر، فالمذكورة هي الضالة فإذا قيل: فتذكرها الأخرى لم يفد ذلك لتعين عود الضمير إلى الضالة، وإذا قيل: فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى كان مبهماً في كل واحدة منهما، فلو ضلت إحداها الآن وذكرتها الأخرى، فذكرت كان داخلاً ثم لو انعكس الأمر والشهادة بعينها في وقت آخر اندرج أيضاً تحته لوقوع قوله: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾، غير معين، ولو قيل: فتذكرها الأخرى، لم يستقم أن يكون

١ - سورة البقرة: الآية / ٥٩

٢ - سورة البقرة: الآية / ٨٩

٣ - سورة البقرة: الآية / ٢٨٢

مندرجا تحته إلا التقدير الأول، فعلم أن العلة هي التذكير من إحداها الأخرى كيفما قدر، وإن اختلف وهذا المعنى لا يفيد إلا ما ذكرناه، فوجب لذلك أن يقال: ﴿فَتُذَكَّرُ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾.^٢ قوله تعالى: ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمّر، وأصله: (وتنزعه)، وفائدته: أن النزع يقتضي سبقيّة الإتياء للشخص المنزوع منه.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾.^٤

قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمّر، وأصله: (رأيتهم)، وفائدته: تأكيد أتصافهم بالنفاق، وبيان أنه العلة في صدهم عن سبيل الله.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.^٥

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمّر، وأصله: (فإنهم هم الغالبون)، وفائدته: تشريف من هذا شأنه، وبيان أن من يوالي أعداء الله فليس من حزب الله الذين رفع الله شأنهم وكتب لهم الغلبة في الدنيا، والنعيم المقيم يوم القيامة.

قال البيضاوي: وضع الظاهر موضع المضمّر تنبيهاً على البرهان عليه فكأنه قيل: ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون وتنوياً بذكرهم وتعظيماً لشأنهم وتشريفاً لهم بهذا الاسم، وتعريضاً لمن يوالي غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان.^٦

١ - عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/ ٢١٥)

٢ - سورة آل عمران: الآية/ ٢٦

٣ - التقييد الكبير للبسيلى (ص: ٤٩٠)

٤ - سورة النساء: الآية/ ٦١

٥ - سورة المائدة: الآية/ ٥٦

٦ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٣٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾^١.

قوله تعالى: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾، من وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (هم أنتم)، كأنه قيل: قل هل أنبئكم بشر من ذلك عند الله مثوبة؟ أنتم، أي: هم أنتم.^٢
وفائدته: التنبيه على العلة التي من أجلها استحقوا أن يكونوا شرَّ الناس مثوبة عند الله وهي الطرد من رحمة الله تعالى.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنبَاهَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾^٣.

قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾، وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (وذلك جزاؤهم)، وفائدته: أنهم أثبوا هذا الثواب العظيم لاتصافهم بالإحسان وهو ذروة الدين.
ومنه قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾^٤.

قوله تعالى: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (به يعدلون)، وفائدته: ذمهم والتشنيع بهم لكونهم يعدلون بربهم الذي أوجدتهم من العدم، وهو ولي نعمتهم.
ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^٥.

قوله تعالى: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (لقالوا)، وفائدته: تسجيل وصف الكفر عليهم، وأنه السبب في عدم التسليم عند رؤية الآيات.

١ - سورة المائدة: الآية/ ٦٠

٢ - الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٤/ ٣٢٧)

٣ - سورة المائدة: الآية/ ٨٥

٤ - سورة الأنعام: الآية/ ١

٥ - سورة الأنعام: الآية/ ٧

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرْدُ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾^١.

قوله تعالى: ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (ولا يرد بأسه عنكم)، وفائدته: التنبيه على العلة التي من أجلها تعرضوا لبأس الله تعالى.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾^٢.
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (ولا تتبع أهواءهم)، وفائدته: بيان الموجب للنهي عن اتباع أهوائهم وهو تكذيبهم بآيات الله تعالى.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾^٣.
قوله تعالى: ﴿أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَهُمْ)، وفائدته: أن وصفهم بالمصلحين هو سبب نجاحهم وفلاحهم عند ربهم، وأن الإصلاح كان هو المانع من تضييع الكتاب.

ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾^٤.
قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمر، وأصله: (وَأَنَّ لَكُمْ عَذَابَ النَّارِ)، وفائدته: الشهادة عليهم بالكفر، وبيان العلة التي استوجبوا بها عذاب النار.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكُنْثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾^٥.

١ - سورة الأنعام: الآية / ١٤٧

٢ - سورة الأنعام: الآية / ١٥٠

٣ - سورة الأعراف: الآية / ١٧٠

٤ - سورة الأنفال: الآية / ١٤

٥ - سورة التوبة: الآية / ١٢

قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمَر، وأصله: (فقاتلوهم)، وفائدته: بيان العلة التي من أجلها نكثوا أيمانهم وطعنوا في الدين، فأوجبت قتالهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^١.

قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمَر، وأصله: (وكلمته هي العليا)، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وأصله: (وهو عزيز حكيم)، وفائدته: ما في التصريح بلفظ الجلالة من المهابة والإجلال والتعظيم.

ومنه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾^٢.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾، وضع الظاهر موضع المضمَر، وأصله: (كيف كان عاقبتهم)، وفائدته: بيان الوصف الذي من أجله ساءت عاقبتهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾^٣.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمَر، وأصله: (وقالوا إن تتبعون...)، وفائدته: بيان سبب وصفهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه مسحور، وهو مجاوزتهم الحد، وطغيانهم وبغيهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾^٤.

قوله تعالى: ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمَر، وأصله: (لا بشرى يومئذ لهم)، وفائدته: تسجيل وصف الإجماع عليهم؛ وأنه العلة التي حرموا من أجلها البشرى عند رؤية الملائكة.

١ - سورة التوبة: الآية / ٤٠

٢ - سورة يونس: الآية / ٣٩

٣ - سورة الفرقان: الآية / ٨

٤ - سورة الفرقان: الآية / ٢٢

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَعْرَفْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^١.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمَر، وأصله: (واعْتَدْنَا لَهُمْ)، وفائدته: تسجيل الظلم عليهم، وأنه سبب إغراقهم، ودمهم على اتصافهم به.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^٢.

قوله تعالى: ﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمَر، وأصله: (لمحيطة بهم)، وفائدته: بيان أن الكفر هو الموجب لإحاطة جهنم بهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾^٣.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمَر، وأصله: (وقالوا هذا ساحر كذاب)، وفائدته: وصفهم بالكفر لقولهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾^٤.

قوله تعالى: ﴿لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمَر، وأصله: (لخزنتها)، وفائدته: التهويل والتخويف بذكر جهنم؛ فإن جهنم أفظع من النار، وذكرها أشد وقعاً على القلوب من ذكر النار.

ومنه قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^٥.

١ - سورة الفرقان: الآية / ٣٧

٢ - سورة العنكبوت: الآية / ٥٤

٣ - سورة ص: الآية / ٤

٤ - سورة غافر: الآية / ٤٩

٥ - سورة غافر: الآية / ٥٧

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾، وضع للظاهر موضع المضمّر، وأصله: (ولكنّ أكثرهم)، وفائدته: بيان حال أكثر الناس وأنهم لا علم لهم.

قال الطيبي: قال صاحب "الفرائد": وضع الظاهر موضع المضمّر؛ للإيذان بأنهم لا يشكرون لكونهم ناساً؛ لأن الشر معجون في طينة الناس، وهو الغالب عليهم.^١

قلت: كان الأولى بصاحب الفرائد أن يقول: للإيذان بأنهم يغلب عليهم الجهل؛ لأن المقام مقام المقارنة بين خلق السماوات والأرض وخلق الناس، وليس مقام تعداد النعم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.^٢

قوله تعالى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وضع للظاهر موضع المضمّر، وأصله: (علينا)، وفائدته: أنهم صرحوا بالوصف الموجب لعذابهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾.^٣

قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾، وضع للظاهر موضع المضمّر، وأصله: (رحمة منا)، وفائدته: التصريح بأن من مقتضيات الربوبية الرحمة بالمربوبين.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾.^٤

قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمّر، وأصله: (ولهم أمثالها)، وفائدته: بيان أن سبب تدمير الأمم الغابرة، والموجب لتدمير من سلك سبيلهم وسار على نهجهم هو الكفر بالله تعالى.

١ - فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (١٣ / ٥٣٧)

٢ - سورة الزمر: الآية / ٧١

٣ - سورة الدخان: الآية / ٥، ٦

٤ - سورة محمد: الآية / ١٠

ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾^١.
قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمَر، وأصله: (فقالوا هذا شيء عَجِيب)، وفائدته: قصد ذمهم بالكفر، كما تقول: جاءني فلان فقال الفاجر كذا، إذا قصدت ذمه.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾^٣.
قوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾، وضع الظاهر موضع المضمَر، قال ابن المنير: في قوله: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾، وأصله: ما ترى في خلقهن من تفاوت، ولكنه ذكرهن منسوبات لخلق الرحمن، تنبيهًا على السبب الذي ربأ بهن على الفطور والتفاوت.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾^٥.
قال ابن المنير: في قوله ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ﴾، وضع الظاهر موضع المضمَر، وفائدته: التنبيه على أن الذي يرجع خاسئًا حسيئًا غير مدرك الفطور: هو الآلة التي يلتمس بها إدراك ما هو كائن، فإذا لم يدرك شيء دل على أنه لا شيء.^٦

١ - سورة ق: الآية / ٢

٢ - التسهيل لعلوم التنزيل (٢ / ٣٠٠)

٣ - سورة الملك: الآية / ٣

٤ - الانتصاف من الكشاف المطبوع بهامش الكشاف (٤ / ٥٧٦)

٥ - سورة الملك: الآية / ٤

٦ - الانتصاف من الكشاف المطبوع بهامش الكشاف (٤ / ٥٧٦)

العامُّ المرادُ به الخصوصُّ

قبل أن نتكلم عن هذا الأسلوب مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ نبين معنى العام ومعنى الخاص حتى يتضح الكلام.

حدُّ العامِّ:

العامُّ هو: اللفظُ الدَّالُّ على مسمَّياتٍ دلالةً لا تنحصرُ في عددٍ.

أَلْفَاظُ الْعُمُومِ:

- ١ - المعرف باللام كالناس والمسلمين والمشركين، والذين.
- ٢ - ما أضيف من ذلك إلى معرفة، كعبيد زيد، ومال عمرو.
- ٣ - أدوات الشرط، كمن: للعاقل، وما: لغير العاقل، وأي وأين للمكان، ومتى وأيان للزمان.
- ٤ - كل وجميع.
- ٥ - النكرة في سياق النفي.

حدُّ الخاصِّ:

الخاصُّ هو: (قصرُ العام على بعض أفرادهِ).

ومن أمثلة العام المراد به الخصوص قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^١.

فإن لفظ: ﴿النَّاسِ﴾ عامٌ يقتضي دخول جميع النَّاسِ في اللَّفْظَيْنِ جميعًا والمراد بعضهم؛ فإن المراد بالنَّاسِ في اللفظ الأول هو نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ وحده، والمرادُ بالنَّاسِ في اللفظ الثاني هو أَبُو سَفِيان بن حرب.

قال مجاهد ومقاتل وعكرمة والكلبي: نعيم بن مسعود الأشجعي.

١ - سورة آل عمران: الآية/ ١٧٣

ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^١.

لفظ ﴿النَّاسَ﴾ عام يشمل النَّاسَ جميعًا والمراد بالنَّاسِ في الآية محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبب ذكره صلى الله عليه وسلم بلفظ العموم هو جمعه صلى الله عليه وسلم ما في النَّاسِ من الخصال الحميدة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ إِذَا لَّهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾^٢.

لفظ ﴿النَّاسَ﴾، هنا عام يراد به الخصوص، وهم المشركون المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم. يخبر الله تعالى عن حال المشركين أنه إذا أذاقهم رحمة من بعد ضراء مستهم، كاليسر بعد العسر، والأمن بعد الخوف، والرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجذب، قابلوا آيات الله تعالى بالتكذيب، والطعن فيها، والاحتتيال في دفعها، وما ذاك إلا لأنهم ألفوا الدعة، واعتادوا النعمة، فدعاهم ذلك إلى البطر، ونسوا ما كانوا فيه من الضر، وما كانوا عليه من الشدة.

ومنه قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾^٣.

فإن لفظ: ﴿الْمَلَائِكَةَ﴾ عام يشمل جميع الملائكة، والمراد بذلك جبريل عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾^٤.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾^٥.

فإن لفظ: ﴿النَّاسَ﴾ في الآية عام يشمل النَّاسَ جميعًا والمراد بالنَّاسِ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ.

١ - سورة النساء: الآية/ ٥٤

٢ - سورة يونس: الآية/ ٢١

٣ - سورة النحل: الآية/ ٢

٤ - سورة الشعراء: الآية/ ١٩٢، ١٩٣

٥ - سورة البقرة: الآية/ ١٣

قال ابن عباس: نزلت في شأن اليهود، أي: وإذا قيل لهم يعني اليهود آمنوا كما آمن الناس عبد الله بن سلام وأصحابه قالوا: ﴿أَتُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾، يعني الجهال والخرقاء.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾.^٢

فإن لفظ: ﴿الَّذِينَ﴾، في الآية عام، وإنما الذي ناداه الأقرع بن حابس.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.^٣

لفظ: ﴿النَّاسُ﴾ في الآية عام يشمل النَّاسَ جميعًا ولا شك أنه خطاب للمكلفين، فلم يدخل في الخطاب الأطفال والمجانين، فالآية من العام المراد به الخصوص.

ومنه قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.^٤

فلفظ: ﴿الْوَالِدَيْنِ﴾ ولفظ: ﴿الْأَقْرَبِينَ﴾، ظاهره العموم ومعناه الخصوص في الوالدين اللذين لا يرثان كالكافرين والعبدان، وفي القرابة غير الوارثة، وذلك لأن الوالدين اللذين يرثان ثبت ميراثهما بدليل مستقل؛ قال تعالى: ﴿وَلَا بَوَیْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾.^٥

قال ابن المنذر: أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الوصية للوالدين اللذين لا يرثان المرء وللاقرباء الذين لا يرثون جائزة.^٦

١ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١١ / ١٩)

٢ - سورة الحجرات: الآية / ٤

٣ - سورة البقرة: الآية / ٢١

٤ - سورة البقرة: الآية / ١٨٠

٥ - سورة النساء: الآية / ١١

٦ - الإشراف لابن المنذر (٤ / ٤٠٣)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾^١.

فلفظ: ﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾ عام يشمل كل كافرة، وهذا العام مخصوص بالكتايبات، فلا يجوز للمسلم أن يتزوج كافرة من غير الكتايبات، كاهندوسية أو البوذية أو الملحدة، وهذا الحكم خاص بالرجال فلا يجوز للمسلمة أن تتزوج كافراً سواء كان كتابياً أو غير كتابي ولا يجوز لها أن تتزوج إلا من مسلم.

ودليل أن هذا العموم في الآية يراد به الخصوص قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾^٢.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^٣.

فإن لفظ: ﴿الْمُطَلَّقَاتُ﴾ عام في كل مطلقة، والمراد به المدخول بهن، وخرجت المطلقة قبل الدخول بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾^٤.

وخرجت المطلقة الحامل بقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾^٥.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾^٦.

١ - سورة البقرة: الآية/ ٢٢١

٢ - سورة المائدة: الآية/ ٥

٣ - سورة البقرة: الآية/ ٢٢٨

٤ - سورة الأحزاب: الآية/ ٤٩

٥ - سورة الطلاق: الآية/ ٤

٦ - سورة التوبة: الآية/ ٣٠

فإن لفظ: ﴿الْيَهُودُ﴾ عام والمراد به الخصوص؛ لأنه ليس كل اليهود يقولون عزيز ابن الله. وكذلك لفظ: ﴿النَّصَارَى﴾، عام والمراد به الخصوص؛ لأنه ليس كل النصارى يقولون المسيح ابن الله.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^١.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾، نكرة في سياق التفي يفيد العموم، والمراد به الخصوص بالدواب التي قدر الله تعالى لها رزقاً؛ لأن كثيراً من الدواب تموت قبل أن ترزق.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ...﴾^٢.

فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، عام والمراد به الخصوص؛ لأنه ليس كل أهل الكتاب يفرحون بما أنزل إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما يفرح بالقرآن بعض من أوتي الكتاب، ممن آمن كعبد الله بن سلام وسلمان وغيرهما.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^٣.

لفظ الإنسان اسم جنس وهو عام والمراد به الخصوص، لأنه لا يتصف كل إنسان بعينه بأنه ظالم كفار، فمن جنس الإنسان الرسل والأنبياء والصديقين والصالحين.

ومنه قوله تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾^٤.

لفظ ﴿كُلِّ﴾ من أقوى صيغ العموم، وهو عام والمراد به الخصوص، ولم تدمر السماوات والأرض، والمراد تدمر كل شيء مرت عليه من رجال عاد وأموالها أو كل شيء بُعِثت إليه، أو تدمر كل شيء من شأنه التدمير.

١ - سورة هود: الآية / ٦

٢ - سورة الرعد: الآية / ٣٦

٣ - سورة إبراهيم: الآية / ٣٤

٤ - سورة الأحقاف: الآية / ٢٥

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾^١.
 فقوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، عامٌ والمراد به الخصوص؛ لأنهم لم تفتح
 عليهم أبواب الرحمة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾^٢.
 قوله تعالى: ﴿إِيمَانَكُمْ﴾، الإيمانُ يشتمل على أركان وشعب وخصال، وهو قول باللسان
 واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح والأركان، والصلاة من الإيمان، وهذه الآية نزلت فيمن مات
 وهو يُصلي إلى بيت المقدس قبل أن تحول القبلة إلى المسجد الحرام؛ فعن البراء قال: «لَمَّا
 قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ
 شَهْرًا، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يُوجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ
 فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]، فَوُجَّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ»^٣.

قال القرطبي: اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس.^٤
 فيكون هذا من العام الذي يراد به الخصوص.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^٥.
 قوله: ﴿الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾ عامٌ والمراد به الخصوص؛ لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة
 حتى يقال أراد منهم العبادة، وهذا خاصٌ فيمن سبق في علم الله أنه يعبد، قال الضحاك:
 المراد بذلك المؤمنون.

١ - سورة الأنعام: الآية/ ٤٤

٢ - سورة البقرة: الآية/ ١٤٣

٣ - رواه البخاري- كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، حديث رقم: ٣٩٩، ومسلم- كتاب المساجد
 ومواضع الصلاة، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، حديث رقم: ٥٢٥

٤ - الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٥٧)

٥ - سورة الذاريات: الآية/ ٥٦

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^١.

فلفظ: ﴿الأعراب﴾ عام والمراد به الخصوص؛ لأنه ليس كل الأعراب قالوا آمناً. قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن خزيمه، وهي قبيلة كانت تجاور المدينة، فلم يقل ذلك الأعراب جميعاً وإنما قال ذلك فريق منهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾^٢.

لفظ: ﴿الكَافِرُونَ﴾ عام في كل كافر، والمراد به الخصوص لا جميع الكافرين؛ لأن منهم من آمن، فعبد الله، ومنهم من مات أو قتل على كفره، وهم المخاطبون بهذا القول فمنهم المذكورون. عام الذي يراد به الخصوص.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾^٣.

فالكلام عام في كل أهل المدينة وجميع من حولهم من الأعراب، والمراد به الخصوص لمن أطاق الجهاد من الرجال.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا﴾^٤. فقوله: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا﴾ عام في كل أهل القرية، والمراد به الخصوص لا جميع أهل القرية، فإنهما لم يأتيا جميع أهل القرية إنما أتيا بعضهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾^٥.

١ - سورة الحجرات: الآية/ ١٤

٢ - سورة الكافرون: الآية/ ١

٣ - سورة التوبة: الآية/ ١٢٠

٤ - سورة الكهف: الآية/ ٧٧

٥ - سورة النساء: الآية/ ٧٥

فَقَوْلُهُ: ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ عام في كُلِّ أَهْلِ الْقَرْيَةِ، والمراد به الخصوص لا جَمِيع أَهْلِ الْقَرْيَةِ، فإن كل واحد من أهل القرية لم يكن ظالماً، فقد كان فيهم المسلمون، ولكنهم كانوا قلة.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^١.
فَقَوْلُهُ: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، عام والمراد به الخصوص؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾^٢.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾^٣.

فلفظ: ﴿النَّاسِ﴾، من قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾ عام والمراد به الخصوص؛ فإن المراد بالناس هنا العرب عبدة الأوثان، وكان دُخُولُهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى أَفْوَاجًا بَيْنَ فَتْحِ مَكَّةَ وَمَوْتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ أَبُو عَمْرٍ: لم يبق عربي بعد حنين والطائف إلا أسلم، منهم من قدم عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنهم من لم يقدم عليه وقنع بما أتاه به وافد قومه من الدين عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^٤.

قال ابن عطية: والمراد والله أعلم عرب عبدة الأوثان، وأما نصارى بني تغلب فما أراهم أسلموا قط في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن أعطوا الجزية^٥.

وقيل: المراد بالناس هنا أهل اليمن، قال مقاتل وعكرمة: المراد بالناس أهل اليمن وفد منهم سبعمائة رجل^٦.

١ - سورة آل عمران: الآية / ٣٣

٢ - سورة الإسراء: الآية / ٧٩

٣ - سورة النصر

٤ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٤ / ١٦٣٨)

٥ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥ / ٥٣٢)

٦ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥ / ٥٣٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾^١.
 فقوله تعالى: ﴿لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، عامٌ والمراد به الخصوص؛ فإن المراد بمن في الأرض هنا:
 المؤمنون؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ
 وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾^٢.

١ - سورة الشورى: الآية/ ٥

٢ - سورة غافر: الآية/ ٧

التَّرْقِي

حَدُّ التَّرْقِي:

التَّرْقِي لُغَةً:

تَفْعُلٌ مِنَ التَّرْقِي وَهُوَ الصُّعُودُ، وَالتَّدرِجُ مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى.

قال الخليل: رقي: ورقي يرقى رقيًّا: صعد وارتقى. والمرقاة: الواحدة من المراقي في الجبل والدرجة، وتقول: (هذا جبل) لا مَرَقَى فيه ولا مُرْتَقَى. وما زال فلان يترقى به الأمر حتى بلغ غايته.^١

وقال إسماعيل بن عباد: رقي يرقى رقيًّا: صعد في سلم أو في درجة. وجبل لا مرقى فيه ولا مرتقى.^٢

وقال الأزهري: يقال: رقي فلان في الجبل يرقى رُقيًّا: إذا صعد، ويقال: ارتقى يرتقي، والمرقاة: واحدة مراقي الدرجة. ويقال: هذا جبل لا مرقى فيه ولا مرتقى، ويقال: ما زال فلان يترقى به الأمر حتى بلغ غايته.^٣

التَّرْقِي اصطلاحًا:

قال السبكي: الترقى وهو أن يذكر معنى، ثم يردف بأبلغ منه.^٤

أمثلة التَّرْقِي:

ومنه قول الله تعالى: ﴿أَوْ تَرَقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾.^٥

أَي: تَصْعَدُ فِي سُلَّمٍ إِلَى السَّمَاءِ وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَيْكَ.

١ - العين (٢١١ / ٥)

٢ - المحيط في اللغة (١٨ / ٦)

٣ - تهذيب اللغة (٩ / ٢٢٤)

٤ - عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (٣١٩ / ٢)

٥ - سورة الإسراء: الآية / ٩٣

ومنه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.^١

إن الله تعالى ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة وهي ما يعتري الإنسان من الفتور قبل النوم، ويقال لها كذلك الوسنُ والنَّعاسُ، ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾، والنوم هو الذي يزول به العقل في حق الإنسان، فبدأ بنفي السِنَّةِ بقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ﴾؛ لأنها أخف ثم نفى النَّومَ بقوله: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لأنه أقوى من السِنَّةِ، ففي الكلام ترقى من الأدنى إلى الأعلى.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.^٢

في الآية ترقى من الأدنى إلى الأعلى، في المقصود وليس في الفضل والرتبة، فإن الاستنكاف هنا هو الإمتناع عن العبادة والملائكة أقدر على ذلك من المسيح عليه السلام؛ فلهذا قال: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل من المسيح عليه السلام.

قال الزركشي: هؤلاء لما عبدوا المسيح واعتقدوا فيه الولدية لما فيه من القدرة على الخوارق والمعجزات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغيره، ولكونه خلق من غير أب، والتزهيد في الدنيا وغالب هذه الأمور هي للملائكة أتم، وهم فيها أقوى؛ فإن كانت هذه الصفات أوجبت عبادته، فهو مع هذه الصفات لا يستنكف عن عبادة الله، بل ولا من هو أكبر منه في هذه الصفات للترقي من الأدنى إلى الأعلى في المقصود، ولم يلزم منه الشرف المطلق والفضيلة على المسيح.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.^٤

في الخطاب تدرج من الأدنى إلى الأعلى فإن ﴿الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، أدنى هذه المحرمات المذكور منزلةً وأخفها حكماً، ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، أعظم منها إثماً

١ - سورة البقرة: الآية / ٢٥٥

٢ - سورة النساء: الآية / ١٧٢

٣ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٢٧٠)

٤ - سورة الأعراف: الآية / ٣٣

وصاحبها أقبح من صاحب الأولى حالاً، والشرك المراد بقوله: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، أقبح مما سبق، وأعظم خطراً، والمشرك أبعد الناس عن مغفرة الله تعالى وشر الناس منزلة يوم القيامة، والقول على الله تعالى المراد بقوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. أعظم مما سبق ذكره وأعظم من الشرك بالله تعالى، والعلة في ذلك أن الشرك بالله تعالى ضرر قاصر على صاحبه أما القول على الله تعالى فضرر متعدد للغير، والقول على الله تعالى افتراء وكذب عليه ولا أظلم ممن هذا حاله فهو أسوء الناس حالاً على الإطلاق، نعوذ بالله من الضلال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فبدأ بالأسهل تحريماً ثم ما هو أشد منه إلى أن ختم بأغلظ المحرمات وهو القول عليه بلا علم، فما أهل به لغير الله في الدرجة الرابعة من المحرمات.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾.^٢

قال الزركشي: فإنه سبحانه بدأ منها بالأدنى لغرض الترتي لأن منفعة الرابع أهم من منفعة الثالث فهو أشرف منه ومنفعة الثالث أعم من منفعة الثاني ومنفعة الثاني أعم من منفعة الأول فهو أشرف منه، وقد قرن السمع بالعقل ولم يقرن به البصر في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصِرُونَ﴾، وما قرن بالأشرف كان أشرف.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾.^٤

بدأ سبحانه بالأدنى وهي النفقة الصغيرة ثم ثنى بالكبيرة، على سبيل الترتي، ثم ذكر الجهاد بالنفس: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ ولا شك أنه أعظم من الإنفاق في سبيل الله.

١ - أحكام أهل الذمة (١/ ٥٢٨)

٢ - سورة الأعراف: الآية/ ١٩٥

٣ - البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٧٠)

٤ - سورة التوبة: الآية/ ١٢١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾^١.

يخبر الله تعالى عن حسرة الْمُجْرِمِينَ يوم القيامة عند رؤية كل واحد منهم لِكِتَابِ أَعْمَالِهِ، الذي دونت فيه الأعمال، ومنها الصغير والكبير، والحقير والعظيم، والفيتل والقطمير، فتعظم حسرته، وتشتد حيرته، ويزداد كربه، فالكتبة لم تترك ذنباً وإن صغر إلا دونته، ولا عملاً صغيراً ولا كبيراً إلا أحصته وحفظته.

فبدأ منها بالأدنى لبيان مدى حسرة المجرمين على تفريطهم وترقي لبيان كمال ضبط الحَفَظَةِ التي تَكْتُبُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾^٢.

قال أبو حيان: الترقى في العطف بعد ﴿وَنَقْصٍ﴾، فبدأ أولاً بالأموال، ثم ترقى إلى الأنفس^٣.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ حَشِيَّةِ اللَّهِ﴾^٤.

قال أبو حيان: وترتيب تقسيم هذه الحجارة ترتيب حسن جداً، وهو على حسب الترقى. فبدأ أولاً بالذي تتفجر منه الأنهار، أي خلق ذا خروق متسعة، فلم ينسب إليه في نفسه تفعل ولا فعل، أي أنها خلقت ذات خروق بحيث لا يحتاج أن يضاف إليها صدور فعل منها. ثم ترقى من هذا الحجر إلى الحجر الذي ينفع انفعالا يسيرا، وهو أن يصدر منه تشقق بحيث ينبع منه الماء. ثم ترقى من هذا الحجر إلى الحجر الذي ينفع انفعالا عظيما، بحيث يتحرك ويتدهده من علو إلى أسفل، ثم رسخ هذا الانفعال التام بأن ذلك هو من

١ - سورة الكهف: الآية/ ٤٩

٢ - سورة البقرة: الآية/ ١٥٥

٣ - البحر المحيط في التفسير (٢/ ٥٦)

٤ - سورة البقرة: الآية/ ٧٤

خشية الله تعالى، من طواعيته وانقياده لما أراد الله تعالى منه، فكفى بالخشية عن الطوعية والانقياد، لأن من خشي أطاع وانقاد.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾.^٢

هذا من باب الترقّي، بدأ أولاً بنفي كَشْفِ الضُّرِّ لهذه الآلهة المزعومة عمن يعبدونهم، ثُمَّ تَرَقَّى إِلَى نفي تحويلهم من حال الضُّرِّ إلى غيرها.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.^٣

هذا من باب الترقّي، فقد بدأ أولاً بذكر الإيمان وَعَمِلِ الصَّالِحَاتِ، ثُمَّ تَرَقَّى إِلَى رتبة أعلى وهي الإيمان والتقوى والإحسان.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.^٤

قال أبو حيان: بدأ أولاً بالكتاب وهو العلم، ثم ترقى إلى التمكين وهو الفصل بين الناس ثم ترقى إلى الرتبة العليا وهي النبوة وهي مجمع الخير.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.^٦

في الآية تَرَقَّى مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَشْرَفِ، بدأ بالأدنى وهي الأنعام، في قوله: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾، ثُمَّ تَرَقَّى إِلَى الْأَشْرَفِ بقوله: ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ وهم بنو آدم.

١ - البحر المحيط في التفسير (١ / ٤٣١)

٢ - سورة الإسراء: الآية / ٥٦

٣ - سورة المائدة: الآية / ٩٣

٤ - سورة آل عمران: الآية / ٧٩

٥ - البحر المحيط في التفسير (٣ / ٢٣٠)

٦ - سورة السجدة: الآية / ٢٧

قال أبو حيان: بدأ بالأدنى ثم ترقى إلى الأشرف، وهم بنو آدم.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ.....﴾.^٢

قال أبو حيان: نهى المؤمنين أن يكون تناجيهم مثل تناجي الكفار، وبدأ باللائم لعمومه، ثم بالعدوان لعظمته في النفوس، إذ هي ظلمات العباد. ثم ترقى إلى ما هو أعظم، وهو معصية الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي هذا طعن على المنافقين، إذ كان تناجيهم في ذلك.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.^٤

في الآية ترقى من الأدنى إلى الأشرف، بدأ بالأدنى وهو اليتيم وهو لا يكون إلا حال الصغر، وهو أعظم مظهر من مظاهر الاحتياج، ثم ارتقى إلى حال السائل، والسؤال وإن كان مظنة الفقر والعوز، إلا إنه أحسن حالاً من اليتيم، ثم ترقى إلى الأشرف وهو حال النعمة والغنى.

قال أبو حيان: فكان ذكر الامتنان بذلك على حسب الواقع بعد اليتيم وحالة التكليف، وفي الآخر ترقى إلى الأشرف، فهما مقصداً في الخطاب.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ.....﴾.^٦

في الآية ترقى من الأدنى إلى الأعلى، بدأ بالأدنى الأخف تحريمًا وهي الميتة ثم بما هو أشد منها وهو الدّم فإنه أخبث وضرره أعظم، ثم بما هو أشد منهما وهو لحم الخنزير؛ فإنه أخبث

١ - البحر المحيط في التفسير (٤٤٢ / ٨)

٢ - سورة المجادلة: الآية / ٨

٣ - البحر المحيط في التفسير (١٢٦ / ١٠)

٤ - سورة الضحى: الآية / ٩ - ١١

٥ - البحر المحيط في التفسير (٤٩٨ / ١٠)

٦ - سورة البقرة: الآية / ١٧٣

منهما، وأعظم ضرراً، ثم بما هو أشد منها جميعاً وهو ما أهل به لغير الله؛ لأنه شرك بالله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾، فحصر التحريم في هذه الأربعة، فإنها محرمة في كل ملة، لا تباح بحال إلا عند الضرورة، وبدأ بالأخف تحريماً ثم بما هو أشد منه فإن تحريم الميتة دون تحريم الدم فإنه أخبث منها ولحم الخنزير أخبث منها وما أهل به لغير الله أخبث الأربعة.

ونظير هذا قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فبدأ بالأسهل تحريماً ثم ما هو أشد منه إلى أن ختم بأغلظ المحرمات وهو القول عليه بلا علم، فما أهل به لغير الله في الدرجة الرابعة من المحرمات.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾.^٢

قال أبو حيان: فالبخل منع وصول خير من الإنسان إلى غيره، والحسد تمنى زوال ما أعطى الله الإنسان من الخير وإيتاؤه له. نعى الله تعالى عليهم تحليهم بهاتين الخصلتين الذميتين، ولما كان الحسد شر الخصلتين ترقى إلى ذكره بعد ذكر البخل.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.^٤

قال أبو حيان: بدأ أولاً بالعام وهو افتراء الكذب على الله وهو أعم من أن يكون ذلك الافتراء بادعاء وحي أو غيره ثم ثانياً بالخاص وهو افتراء منسوب إلى وحي من الله تعالى ولم

١ - أحكام أهل الذمة (١/ ٥٢٨)

٢ - سورة النساء: الآية/ ٥٣، ٥٤

٣ - البحر المحيط في التفسير (٣/ ٦٧٨)

٤ - سورة الأنعام: الآية/ ٩٣

يُوحِ إِلَيْهِ شَيْءٌ جَمَلَةٌ حَالِيَةٌ أَوْ غَيْرُ مُوحَى إِلَيْهِ لِأَنَّ مَنْ قَالَ أَوْحَى إِلَيَّ وَهُوَ مُوحَى إِلَيْهِ هُوَ صَادِقٌ ثُمَّ ثَانِيًا بِأَخْصٍ مِمَّا قَبْلَهُ، لِأَنَّ الْوَحْيَ قَدْ يَكُونُ بِإِنْزَالِ قُرْآنٍ وَبِغَيْرِهِ.^١

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾.^٢

فِي الْآيَةِ تَرْقِي مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى، قَالَ الْفَيْرُوزْآبَادِيُّ: فَالصَّبْرُ دُونَ الْمَصَابِرَةِ، وَالْمَصَابِرَةُ دُونَ الْمَرَابِطَةِ.^٣

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ﴾.^٤

قَالَ ابْنُ جَمَاعَةَ: ف (رَبِّ): أَخْصَ الثَّلَاثَةَ، لِأَنَّهُ يُقَالُ فِي الْبَارِي تَعَالَى وَفِي غَيْرِهِ وَ(مَلِكِ): أَعَمُّ مِنْهُ، وَأَخْصَ مِنْ (إِلَهٍ)، لِأَنَّهُ يُقَالُ: مَلِكُ الْعِرَاقِ وَنَحْوُهُ وَ(إِلَهٍ): أَعَمُّ الثَّلَاثَةَ، لِأَنَّهُ تَعَالَى: رَبِّهِمْ، وَمَلِكُهُمْ، وَإِلَهُهُمْ، وَلَا يَشَارِكُهُ غَيْرُهُ فِي ذَلِكَ فَحَصَلَ التَّرْقِيُّ مِنْ صِفَةٍ إِلَى صِفَةٍ، لَمَّا فِي الْوَصْفِ الثَّانِي مِنَ التَّعْظِيمِ مَا لَيْسَ فِي الْأَوَّلِ، وَفِي الثَّالِثِ مَا لَيْسَ فِي الثَّانِي.^٥

١ - الْبَحْرُ الْمَحِيطُ فِي التَّفْسِيرِ (٤ / ٥٨٥)

٢ - سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: الْآيَةُ / ٢٠٠

٣ - بَصَائِرُ ذَوِي التَّمْيِيزِ فِي لَطَائِفِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ (٣ / ٣٧٩)

٤ - سُورَةُ النَّاسِ: الْآيَةُ / ١ - ٣

٥ - كَشَفُ الْمَعَانِي فِي الْمُتَشَابِهَةِ مِنَ الْمُتَنَانِي (ص: ٣٨٣)

الطَّبَاقُ

تعريفُ الطَّبَاقِ:

الطَّبَاقُ أو المطابقةُ لغةً: مقابلة الشيء لمثله الذي هو على قدره.

وقال الثعالبي: هو الجمع بين ضدّين.^١

واصطلاحًا: هو أن يجمع بين متضادين مع مراعاة التقابل كالبياض والسواد والليل والنهار.^٢

الفرقُ الطَّبَاقِ والمقابلة:

قال ابن أبي الأصبع: الفرق بين الطَّبَاقِ والمقابلة من وجهين: أحدهما أنّ الطباق لا يكون بين ضدّين فقط والمقابلة لا يكون إلّا بما زاد من الأربعة إلى العشرة وثانيهما أنّ الطَّبَاق لا يكون بالأضداد والمقابلة تكون بالأضداد وبغيرها.^٣

وقيل: المقابلة: أن يؤتى بمعنيين متوافقين، أو أكثر ثم يقابل ذلك على الترتيب.^٤

والطباق باعتبار دلالة اللفظ، ينقسم إلى قسمين: لفظي ومعنوي.

وباعتبار النفي والإثبات، ينقسم إلى قسمين:

طباق إيجابٍ، وطباق سلبٍ.

وباعتبار الظهور والخفاء ينقسم إلى قسمين:

طباق ظاهرٍ وطباق خفيٍ.

ويكون الطباق في الأسماء، والأفعال.

١ - فقه اللغة وسر العربية (ص ٢٧٥)

٢ - البرهان في علوم القرآن (٣/ ٤٥٥)

٣ - كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (٢/ ١٦٢٠)

٤ - معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص: ١٠١)

أَوَّلًا الطِّبَاقُ اللَّفْظِيُّ:

ومعناه: بين متضادين مع مراعاة التقابل في اللفظين، مثل الضحك والبكاء، والفرح والحزن، والموت والحياة.

مثاله قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^١.

في الآية طباق بين الضحك في قوله: ﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ والبكاء في قوله: ﴿وَلْيَبْكُوا﴾، وطباق بين القليل في قوله: ﴿قَلِيلًا﴾ والكثير في قوله: ﴿كَثِيرًا﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^٢.

في الآية طباق بين الأسى وهو الحزن في قوله: ﴿تَأْسَوْا﴾ والفرح في قوله: ﴿تَفْرَحُوا﴾، وطباق بين الفقد والفوات في قوله: ﴿فَاتَكُمْ﴾ والعطاء في قوله: ﴿آتَاكُمْ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾^٣.

في الآية طباق بين الضحك في قوله: ﴿أَضْحَكَ﴾ والبكاء في قوله: ﴿أَبْكَى﴾، وطباق بين الموت والحياة في قوله: ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾^٤.

في الآية طباق بين اليقظة في قوله: ﴿أَيْقَظًا﴾، والرقاد في قوله: ﴿رُقُودٌ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾^٥.

١ - سورة التوبة: الآية / ٨٢

٢ - سورة الحديد: الآية / ٢٣

٣ - سورة النجم: الآية / ٤٣، ٤٤

٤ - سورة الكهف: الآية / ١٨

٥ - سورة الرعد: الآية / ١٠

في الآية طِبَاقٌ بين الإِسْرَارِ في قوله: ﴿أَسْرَرٌ﴾ والجَهْرِ في قوله: ﴿جَهَرَ﴾، وطِبَاقٌ بين الاستخفاء في قوله: ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ والظهور في قوله: ﴿وَسَارِبٌ﴾، فإن معنى سَارِبٍ أي: ظاهرٌ ماشٍ في ضياءِ النهارِ وطِبَاقٌ بين اللَّيْلِ والنَّهَارِ في قوله: ﴿مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِعَیْرِ حِسَابٍ﴾^١.

في الآية طِبَاقٌ بين الإيتاء وهو الإعطاء والتمكين في قوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ﴾ والنزع وهو السلب بقوة في قوله: ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ﴾، وطِبَاقٌ بين العزة في قوله: ﴿وَتُعِزُّ﴾ والذلة في قوله: ﴿وَتُذِلُّ﴾، وطِبَاقٌ بين اللَّيْلِ في قوله: ﴿بِاللَّيْلِ﴾ والنَّهَارِ في قوله: ﴿بِالنَّهَارِ﴾، وطِبَاقٌ بين الحياة في قوله: ﴿الْحَيَّ﴾، والموت في قوله: ﴿الْمَيِّتِ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾^٢.

في الآية طِبَاقٌ بين الأعمى في قوله: ﴿الْأَعْمَى﴾ والبصير في قوله: ﴿وَالْبَصِيرُ﴾، وطِبَاقٌ بين الظلام في قوله: ﴿الظُّلُمَاتُ﴾ والنور في قوله: ﴿وَالنُّورُ﴾، وطِبَاقٌ بين الظل في قوله: ﴿الظِّلُّ﴾ والحر في قوله: ﴿الْحَرُورُ﴾، وطِبَاقٌ بين الأحياء في قوله: ﴿الْأَحْيَاءُ﴾، والموتى في قوله: ﴿الْأَمْوَاتُ﴾.

قلنا إِنَّ الْمُطَابَقَةَ أو الطِّبَاقَ ينقسم إلى قسمين: إلى طِبَاقٍ لَفْظِيٍّ وطِبَاقٍ مَعْنَوِيٍّ وقد مثلنا على الطِّبَاقِ اللفظيِّ بما سبق من أمثلة أما الطِّبَاقُ المعنويُّ فمعناه: الجمع بين مُتضَادَّينِ مع مُراعاةِ التَّقابُلِ في المعنيين.

١ - سورة آل عمران: الآية/ ٢٦، ٢٧

٢ - سورة فاطر: الآيات/ ١٩ - ٢٢

أمثلة الطباق المعنوي:

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ *
قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ^١.

فقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾، يقابله من حيث الطباق معنى قول الرسل: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾، أي: رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا لَصَادِقُونَ.

ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً^٢﴾.

قال أبو علي الفارسي: لما كان البناء رفعا للمبني قبل بالفرش الذي هو على خلاف البناء^٣.

ومن الطباق المعنوي نوع يسمى الطباق الخفي، ولا يتوصل إليه إلا بطول التأمل وإعمال الفكر.

ومنه قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا^٤﴾.
في الآية طابق بين قوله: ﴿أُغْرِقُوا﴾ وقوله: ﴿أُدْخِلُوا نَارًا﴾؛ لأن الغرق من صفات الماء فكأنه جمع بين الماء في النار والنار. قال ابن منقذ: وهي أخفى مطابقة في القرآن^٥.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ^٦﴾.

وفي تشريع القصاص حكمة عظيمة وهي بقاء المهج وصونها؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه، فكان في ذلك حياة للنفوس، وفي الكتب المتقدمة: القتل أنفى للقتل فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز، وهو من أملح الطباق وأخفاه كما قال ابن المعتز.

١ - سورة يس: الآية / ١٥، ١٦

٢ - سورة البقرة: الآية / ٢١

٣ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٤٥٦)

٤ - سورة نوح: الآية / ٢٥

٥ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٤٥٧)

٦ - سورة البقرة: الآية / ١٧٩

وينقسم الطباق من حيث النفي والإثبات إلى قسمين: طباق إيجابٍ وطباقٍ سلبٍ.

تعريف طباق السلب:

طباق السلب هو الذي يكون بين معنيين متضادين أحدهما مثبت والآخر منفي، أو بين أمر ونهي.

ومثاله في الأمر والنهي: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾^١.

ففي الآية نهي للمؤمنين عن خشية الناس، وأمر لهم بالخشية من الله تعالى وحده.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾^٢.

في الآية نهي للمؤمنين عن خشية الناس وأمرهم بالخشية من الله تعالى وحده.

ومنه قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^٣.

يتبرأ عيسى عليه السلام ممن عبده في الدنيا، وينفي عن نفسه علم شيء من الغيب ويسلم أمره لخالقه الذي يعلم السر وأخفى فيقول يارب تعلم سري وما انطوى عليه ضميري ومكنون نفسي، ولا أعلم شيئاً مما استأثرت به من غيبك وعلمك.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾^٤.

في الآية نهي عن التأفف في وجوه الوالدين ونهي عن انتהارهما، وأمر بالإحسان لهما بإلانة القول لهما وحسن معاملتهما.

ومثاله في الإثبات والنفي: قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ * يَعْلَمُونَ ظاهرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا^٥.

في الآية نفي للعلم النافع عن كثير من الناس، وإثبات لعلم لا ينفع.

١ - سورة البقرة: الآية / ١٥٠

٢ - سورة المائدة: الآية / ٤٤

٣ - سورة المائدة: الآية / ١١٧

٤ - سورة الإسراء: الآية / ٢٣

٥ - سورة الروم: الآية / ٦، ٧

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾^١.

في الآية نفي للرمي وإثبات له، نفى عنه الرمي وأثبت له، ويفسر ذلك صدر الآية، أعني قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾. أي ما أصبت وقتلت عندما رميت ولكن الله أصابهم وقتلهم، وقيل: ما رميت على الحقيقة إذ رميت في ظاهر الحال، أو ما رميت الرعب في قلوبهم إذ رميت الحصيات والتراب.

وكما يكون الطباق في الأفعال يكون في الأسماء كذلك.

أمثلة الطباق في الأسماء:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾^٢.

ففي الآية نفي للأمومة عن الأزواج، فليست الزوجة أمًا، وأثبتت الأمومة فقط للتي أنجبت.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾^٣.

في الآية بيان أن من الأعناب والزرع والنخيل ما هو صنوان وغير صنوان والصنوان: هي الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين وبعض النخيل، ونحو ذلك. وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار.^٤

ومنه قوله تعالى: ﴿مِنْ مِضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾^٥.

في الآية بيان أن المِضْغَةَ يكون منها المخلقة وهي التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين، وغير المخلقة وهي التي لم يخلق فيها شيء.

١ - سورة الأنفال: الآية / ١٧

٢ - سورة المجادلة: الآية / ٢

٣ - سورة الرعد: الآية / ٤

٤ - تفسير ابن كثير (٤ / ٤٣١)

٥ - سورة الحج: الآية / ٥

ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ﴾^١.

يخبر الله تعالى أنَّ زلزلة الساعة شيء عظيم تدهش له عقول النَّاسِ، وتذهل من هولهِ ألبابهم، فَمَنْ رَأَاهُمْ حسب أنَّهم سُكَارَى، وما هم بسَكَارَى ولكنَّ عذابَ الله شديدٌ.

١ - سورة الحج: الآية/ ٢

المُدْرَجُ

تعريف المدرج:

المُدْرَجُ لغة: بضم الميم وفتح الراء اسم مفعول من (أَدْرَجَ) يقال أَدْرَجَ إدراجًا، إذا أدخل شيئًا في شيء، ومنه قولهم: أَدْرَجَ الميثُ في الكَفَنِ.

قال ابن فارس: الدال والراء والجيم أصل واحد يدل على مضى الشيء والمضى في الشيء.^١

قال ابن منظور: وأدرج الكتاب في الكتاب: أدخله وجعله في درجه أي في طيه. ودرج الكتاب: طيه وداخله؛ وفي درج الكتاب كذا وكذا. وأدرج الميث في الكفن والقبر: أدخله.^٢

واصطلاحًا: أن تحيء الكلمة إلى جنب أخرى كأنها في الظاهر معها وهي في الحقيقة غير متعلقة بها.^٣

وهذا النوعُ سمي بهذه التسمية بنظير المدرج من الحديث.

أمثلة المدرج:

قول الله تعالى حكاية عن بلقيس: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.^٤

قال ابن عباس: قالت بلقيس: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾، قال الربُّ، عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

قال الشوكاني: أي: إذا دخلوا قرية من القرى خربوا مبانيها، وغيروا مغانيها، وأتلفوا أموالها، وفرقوا شمل أهلها وجعلوا أعزة أهلها أذلة أي: أهانوا أشرافها، وحطوا مراتبهم، فصاروا عند

١ - معجم مقاييس اللغة (٢/ ٢٧٥)

٢ - لسان العرب (٢/ ٢٦٩)

٣ - البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٩٤)

٤ - سورة النمل: الآية/ ٣٤

ذلك أذلة وإنما يفعلون ذلك لأجل أن يتم لهم الملك، وتستحكم لهم الوطأة وتتقرر لهم في قلوبهم المهابة.^١

فقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. أي: مثل ذلك الفعل يفعلون.

فجمله: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ هي من قول الله تعالى لا من قول بلقيس.

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.^٢

فجمله: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾. من قول الكفار يوم القيامة.

وجمله: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾. من قول المؤمنين، أو من قول الملائكة.

وقال الحسن: إنما يجيبهم بذلك الملائكة.^٣

وقولهم: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾، وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد. قال أبي بن كعب رضي الله عنه ومجاهد والحسن وقتادة: ينامون نومة قبل البعث.^٤

وقيل: ظنوا لاختلاط عقولهم بما شاهدوا من الهول، وما داخلهم من الفزع أنهم كانوا نياماً.^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.^٦

فجمله: ﴿يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾. من قول الكفار يوم القيامة.

١ - فتح القدير للشوكاني (١٥٨ / ٤)

٢ - سورة يس: الآية / ٥٢

٣ - تفسير ابن كثير (٥٨٢ / ٦)

٤ - تفسير ابن كثير (٣٤٦ / ٦)

٥ - فتح القدير للشوكاني (٤٢٩ / ٤)

٦ - سورة الصافات: الآية / ٢٠، ٢١

وجملة: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. من قول المؤمنين، أو من قول الملائكة، تقول الملائكة والمؤمنون لهم هذا على سبيل التقرير والتوبيخ.

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾^١.

فجملة: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾. من قول الملأ من قوم فرعون وهم جلساؤه.

وجملة: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾. من كلام فرعون، بدليل ما بعده وهو قوله: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾. قال الملأ ذلك جواباً لفرعون حيث استشارهم، وطلب ما عندهم من الرأي.

ومنه قوله تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِهْتَمْ صَالُوا النَّارِ﴾^٢.

فجملة: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾. من كلام الملائكة الذين هم خزنة النار.

وجملة: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾، من كلام قادة المشركين ورؤسائهم، بدليل ما بعده وهو: ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمْتُمُوهُ لَنَا فَبَيْسَ الْقَرَارِ﴾^٣.

يقول ذلك الأتباع عند سماع ما قاله الرؤساء لهم بل أنتم لا مرحباً بكم، أي: لا كرامة لكم، ثم عللوا ذلك بقولهم: ﴿أَنْتُمْ قَدْ مَتَمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي: أنتم قدمتم لنا العذاب، ودعوتونا إليه بما كنتم تقولونه لنا.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ. أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَفْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾^٤.

١ - سورة الأعراف: الآية/ ١٠٩، ١١٠

٢ - سورة ص: الآية/ ٥٩

٣ - سورة ص: الآية/ ٦٠

٤ - سورة الأعراف: الآية/ ٤٨، ٤٩

فإن قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾. من كلام أصحاب الأعراف، يخاطبون به رجالاً من صناديد المشركين وقادتهم، من أصحاب النار.

وقوله تعالى: ﴿أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. من كلام الله تعالى للكبراء والرؤساء من صناديد الكفار.

قال ابن عباس: قال الله لأهل التكبر والأموال: ﴿أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾، يعني أصحاب الأعراف، ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَتِنَّكَ لَمِنَ الْمَصْدِقِينَ * أَيْدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ * فَاطْلَعْ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾.^٢

فإن قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. من كلام المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة.

وقوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾. من كلام الله تعالى.

قال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا ليصيروا إليه في الآخرة.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾.^٤

فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾. من كلام المشركين يعترضون بذلك على أحكام الله تعالى في شرعه.

١ - تفسير الطبري (١٠ / ٢٣٢)

٢ - سورة الصافات: الآيات / ٥٠ : ٦١

٣ - تفسير الطبري (٢٣ / ٤٠)

٤ - سورة البقرة: الآية / ٢٧٥

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾. من كلام الله تعالى ردًا عليهم، فيما قالوه من الاعتراض، على الشرع.

قال الشوكاني: جعلوا البيع والربا شيئًا واحدًا، وإنما شبهوا البيع بالربا مبالغة بجعلهم الربا أصلًا والبيع فرعًا، أي: إنما البيع بلا زيادة عند حلول الأجل كالبيع بزيادة عند حلوله، فإن العرب كانت لا تعرف ربا إلا ذلك، فرد الله سبحانه عليهم بقوله: وأحل الله البيع وحرم الربا أي أن الله أحل البيع وحرم نوعًا من أنواعه، وهو البيع المشتمل على الربا.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.^٢

فإن قوله تعالى: ﴿خَيْرًا﴾. من كلام الذين اتَّقَوْا لما سئلوا ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾. أي: أنزل رحمة وبركة وحسنًا لمن اتَّبعه وآمن به.^٣

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

قال الشوكاني: للذين عملوا الأعمال الحسنة في هذه الدنيا على وجه الإخلاص حسنة عظيمة وهي الجنة، وقوله: في هذه الدنيا متعلق بأحسنوا، وقيل: هو متعلق بحسنة على أنه بيان لمكانها، فيكون المعنى: للذين أحسنوا في العمل حسنة في الدنيا بالصحة والعافية والظفر والغنيمة.^٤

قال القرطبي: قيل: هو من كلام الله عز وجل.^٥

١ - فتح القدير للشوكاني (١/ ٣٣٩)

٢ - سورة النحل: الآية/ ٣٠

٣ - تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦٨)

٤ - فتح القدير للشوكاني (٤/ ٥٢٠)

٥ - تفسير القرطبي (١٠/ ١٠٠)

الْكِنَايَةُ

تَعْرِيفُ الْكِنَايَةِ:

الْكِنَايَةُ: هِيَ لَفْظٌ يَرَادُ بِهِ لَازِمٌ مَعْنَاهُ.

قال الزمخشري: الكناية ذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له.^١

وقيل: الكناية: ترك التصريح بالشيء إلى مساويه في اللزوم، لينتقل منه إلى الملزوم.^٢

والكناية من أنواع البلاغة وأساليب الفصاحة، وهي أبلغ من التصريح.

قال بدر الدين بن مالك في المصباح إنما يعدل عن التصريح إلى الكناية لنكتة كالإيضاح أو بيان حال الموصوف، أو مقدار حاله، أو القصد إلى المدح أو الذم، أو الاختصار أو الستر أو الصيانة، أو التعمية والإلغاز، أو التعبير عن الصعب بالسهل أو عن المعنى القبيح باللفظ الحسن.^٣

أَسْبَابُ الْكِنَايَةِ:

السَّبَبُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ التَّصْرِيحُ مِمَّا يُسْتَحْيَا مِنْ ذِكْرِهِ.

مثال ذلك الكناية عن الجماع بالملازمة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.^٤

قال ابن عباس: الدخول، والتغشي والإفضاء، والمباشرة، والرفث، واللمس هو: الجماع، غير أن الله حيي كريم يكتفي بما يشاء عنمن يشاء.^٥

١ - الإتيان في علوم القرآن (٣ / ١٦٣)

٢ - الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١ / ١٨٧)

٣ - الإتيان في علوم القرآن (٣ / ١٦٢)

٤ - سورة المائدة: الآية / ٦

٥ - انظر تفسير ابن المنذر (٢ / ٦٣٠)، والتفسير الوسيط للواحدي (١ / ٢٨٦)

ومن ذلك أيضا الكناية عن الجماع بالرفث، قال الله تعالى: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾^١.

فقوله تعالى: ﴿الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾، كناية عن الجماع.

عن ابن عباس قال: إن الله كريم يكني ما شاء، وإن الرفث هو الجماع.^٢

ومن ذلك أيضا الكناية عن الجماع بالمباشرة قال الله تعالى: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ وَأَبْنِعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾^٣.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُمْ﴾، كناية عن الجماع، أي: قد أحلَّ لكم ما حرَّم عليكم، وسمي الوقع مباشرةً لتلاصق البشرتين فيه.

ومن ذلك أيضا الكناية عن الجماع بالغشيان، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا﴾^٤.

فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾، كناية عن الجماع.

ومن ذلك أيضا الكناية عن الجماع بالفيء، قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرِيصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^٥.

فإن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾، كناية عن الجماع، قاله ابن عباس، ومسروق والشَّعْبِيُّ، وسعيد بن جبيرة، وغير واحد، ومنهم ابن جرير.^٦

ومن ذلك أيضا الكناية عن الجماع بالدخول، والسير، والمس، والمرادة، واللباس.

ولا شك أن هذا من أجمل الآداب التي يعلمنا إياها القرآن وهي الكناية مما يستقبح ذكره أو مما يستحيا من ذكره.

١ - سورة البقرة: الآية / ١٨٧

٢ - رواه ابن أبي حاتم - رقم: ١٨٢٤

٣ - سورة البقرة: الآية / ١٨٧

٤ - سورة الأعراف: الآية / ١٨٩

٥ - سورة البقرة: الآية / ٢٢٦

٦ - تفسير ابن كثير (١/ ٦٠٤)

السَّبَبُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ التَّصْرِيحُ مِمَّا يُسْتَقْبَحُ ذِكْرُهُ.

ومثال ذلك الكِنَايَةُ عن البول ونحوه بالغَائِطِ قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾^١.

فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿مِّنَ الْغَائِطِ﴾، كِنَايَةٌ عَنِ الْبَوْلِ، وَأَصْلُ الْغَائِطِ الْمَكَانُ الْمُنْخَفِضُ مِنَ الْأَرْضِ.

ومثال ذلك الكِنَايَةُ عَنِ قِضَاءِ الْحَاجَةِ بِأَكْلِ الطَّعَامِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾^٢.

فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾، كِنَايَةٌ عَنِ قِضَاءِ الْحَاجَةِ؛ لِأَنَّ أَكْلَ الطَّعَامِ مِنْ لَوَازِمِهِ قِضَاءُ الْحَاجَةِ.

ومثال ذلك أَيْضًا الكِنَايَةُ عَنِ الْأَسْتِثَاءِ بِالْأَدْبَارِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾^٣.

فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾، كِنَايَةٌ عَنِ الْأَسْتِثَاءِ، قَالَ مُجَاهِدٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: يَعْنِي أَسْتَاهَهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُكْنِي.

السَّبَبُ الثَّالِثُ: التَّنْبِيهُ عَلَى عِظَمِ قُدْرَةِ اللَّهِ تعالى.

مثال ذلك الكِنَايَةُ عَنِ آدَمَ بِالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾^٤.

وَقَالَ تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾^٥.

فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، كِنَايَةٌ عَنِ آدَمَ، تَنْبِيْهًُا عَلَى كِمَالِ قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

١ - سورة المائدة: الآية/ ٦

٢ - سورة المائدة: الآية/ ٧٥

٣ - سورة الأنفال: الآية/ ٥٠

٤ - سورة النساء: الآية/ ١

٥ - سورة الأعراف: الآية/ ١٨٩

السَّبَبُ الرَّابِعُ: التَّنْبِيهُ عَلَى قَصْدِ الْمَبَالِغَةِ.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^١.

فقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، كناية عن إعراضهم عن التوراة التي فيها البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وراء ظهورهم؛ لأن ما يجعل وراء الظهر لا يُنْظَرُ إليه، كأنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه.

وفي التعبير بقوله: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، بيان لمبالغتهم في الإعراض عن كتاب الله تعالى، لشدة عدائهم لنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، لأنهم لا يريدون أن يسمعوا له ذكراً، ولا يعلموا له خبراً، شأن المبعوض الذي لا يريد أن يسمع عمن ييغضه شيئاً.

ومثال ذلك أيضاً: الكِنَايَةُ عَنْ سَعَةِ كَرَمِ اللَّهِ وَعَظِيمِ جُودِهِ بِبَسْطِ يَدَيْهِ سُبْحَانَهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^٢.

فقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾. كناية عن سعة كرم الله وعظيم جوده، ردّاً على اليهود الذين قالوا: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا.

قال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ»^٣.

ومثال ذلك أيضاً: الكِنَايَةُ عَنْ النِّسَاءِ بَمَنْ يُنْشَأُ فِي الْحَلِيَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾^٤.

١ - سورة البقرة: الآية / ١٠١

٢ - سورة المائدة: الآية / ٦٤

٣ - رواه البخاري - كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، حديث رقم: ٧٤١٩، ومسلم - كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتشير المنفق بالخلف، حديث رقم: ٩٩٣، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٤ - سورة الزخرف: الآية / ١٨

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْخَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾، كُنِيَ عَنِ النِّسَاءِ بِأَنَّهُنَّ يَنْشَأْنَ فِي التَّرَفِّهِ وَالتَّزِينِ الشَّاعِلِ عَنِ النَّظَرِ فِي الْأُمُورِ وَدَقِيقِ الْمَعَانِي وَلَوْ أَتَى بِلَفْظِ: (النِّسَاءِ) لَمْ يَشْعُرْ بِذَلِكَ وَالْمُرَادُ نَفْيُ ذَلِكَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ^١.

وَالْحِكْمَةُ مِنَ الْكِنَايَةِ هُنَا، الرُّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا.

السَّبَبُ الْخَامِسُ: قَصْدُ الْاِخْتِصَارِ.

مِثَالُ ذَلِكَ الْكِنَايَةُ عَنْ عَجْزِ الْمُشْرِكِينَ عَنْ مُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ بِمِثْلِهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾^٢.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾. كِنَايَةُ عَنْ عَجْزِهِمْ عَنْ مُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ بِمِثْلِهِ، وَأَنَّكُمْ لَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضًا، وَالْمَعْنَى: فَإِنْ لَمْ تَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، وَلَنْ تَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ.

السَّبَبُ السَّادِسُ: التَّنْبِيهُ عَلَى الْإِهْلَاكِ وَقُبْحِ الْمُنْقَلَبِ وَسُوءِ الْمَصِيرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا ذَاوِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾^٣.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَطَّعْنَا ذَاوِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، كِنَايَةُ عَنْ إِهْلَاكِهِمْ، وَاسْتِثْوَالِ شَأْفَتِهِمْ.

مِثَالُ ذَلِكَ الْكِنَايَةُ عَنْ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، بِأَبِي هَبٍ، وَعَنْ أُمِّ جَمِيلٍ امْرَأَةِ أَبِي هَبٍ، بِحَمَّالَةِ الْحَطَبِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ هَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾^٤.

١ - الْإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ (٣ / ١٦١)

٢ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢٤

٣ - سُورَةُ الْأَعْرَافِ: الْآيَةُ / ٧٢

٤ - سُورَةُ الْمَسَدِ: الْآيَةُ / ١ - ٤

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾، كِنَايَةٌ عَنْ عَبْدِ الْعَزَّى أَحَدِ أَعْمَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَنْ أُمِّ جَمِيلٍ امْرَأَةِ أَبِي هَبٍ، وَعَنْ وَشْوَاءٍ مَصِيرِيهِمَا وَأَنْهُمَا سَيَكُونَانِ حَطْبًا لْجَهَنَّمَ عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ.

السَّبَبُ السَّابِعُ: التَّنْبِيهُ عَلَى قَصْدِ الْمَبَالِغَةِ فِي التَّحْقِيرِ.

مِثَالُ ذَلِكَ الْكِنَايَةُ عَنِ الشَّيْءِ الْحَقِيرِ بِالْفَتِيلِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.^١

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتِيلًا﴾، كِنَايَةٌ عَنِ الشَّيْءِ الْحَقِيرِ وَالصَّغِيرِ، وَالْمَعْنَى: وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ حَقِيرًا، بِمَقْدَارِ الْفَتِيلِ، وَالْفَتِيلُ: هُوَ الْخِيطُ الَّذِي فِي شِقِ نَوَاةِ الثَّمَرَةِ.

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾.^٢

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَقِيرًا﴾، كِنَايَةٌ عَنِ الشَّيْءِ الْحَقِيرِ الْمُتَنَاهِي فِي الصَّغَرِ، وَالْمَعْنَى لَوْ كَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَلَنْ يُؤْتُوا النَّاسَ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ هَذَا الشَّيْءُ حَقِيرًا جَدًّا بِمَقْدَارِ النَّقِيرِ - وَهِيَ نُكْتَةٌ صَغِيرَةٌ تَكُونُ فِي ظَهْرِ النَّوَاةِ، وَمِنْهَا تَنْبُثُ النَّخْلَةُ - ضَنْأًا مِنْهُمْ وَبَخْلًا بِمَا عِنْدَهُمْ.

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿: وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.^٣

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾، كِنَايَةٌ عَنِ الشَّيْءِ الْحَقِيرِ الْمُتَنَاهِي فِي الصَّغَرِ، وَالْمَعْنَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا عَلَى الطَّلَاقِ وَلَوْ كَانَ فِي مُنْتَهَى الصَّغَرِ، وَلَوْ كَانَ شَيْئًا حَقِيرًا جَدًّا، وَلَوْ كَانَ هَذَا الشَّيْءُ بِمَقْدَارِ الْقِطْمِيرِ، وَالْقِطْمِيرُ الْقِشْرَةُ الرَّقِيقَةُ الْبَيْضَاءُ الَّتِي بَيْنَ الثَّمَرَةِ وَالنَّوَاةِ.

وَمِنْ ذَلِكَ الْكِنَايَةُ عَنْ اسْتِحْلَالِ الصَّدَاقِ بِالْأَكْلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾.^٤

١ - سورة النساء: الآية/ ٤٩

٢ - سورة النساء: الآية/ ٥٣

٣ - سورة فاطر: الآية/ ١٣

٤ - سورة النساء: الآية/ ٤

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوهُ﴾، كِنَايَةٌ عَنِ اسْتِحْلَالِ الصَّدَاقِ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَهَذَا بَاطِلٌ، لِأَنَّهَا قَدْ طَابَتْ وَقَدْ أَكَلَ فَلَا كَلَامَ لَهَا، إِذْ لَيْسَ الْمُرَادُ صُورَةَ الْأَكْلِ، وَإِنَّمَا هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْإِحْلَالِ وَالْإِسْتِحْلَالِ.^١

وَمِنْ ذَلِكَ الْكِنَايَةُ عَنِ النِّفَرِ فِي سَرَايَا بِالثُّبَاتِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾.^٢

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُبَاتٍ﴾، كِنَايَةٌ عَنِ السَّرَايَا، الْوَاحِدَةُ ثُبَّةٌ وَهِيَ الْعَصَابَةُ مِنَ النَّاسِ، وَالْمَعْنَى اَنْفِرُوا سَرَايَا مَتَفَرِّقِينَ أَوْ اَنْفِرُوا كَلَّكُمْ جَمِيعًا.

وَمِنْ ذَلِكَ الْكِنَايَةُ عَنِ الْإِسْتِعْبَادِ بِالْجَزَاءِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.^٣

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾. كِنَايَةٌ عَنِ الْإِسْتِعْبَادِ، وَالتَّقْدِيرُ: مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَجَزَاؤُهُ الْإِسْتِعْبَادُ.

١ - تفسير القرطبي (٢٥ / ٥)

٢ - سورة النساء: الآية / ٧١

٣ - سورة يوسف: الآية / ٧٥

ضَرْبُ الْأَمْثَالِ

تَعْرِيفُ الْمَثَلِ:

المَثَلُ: الشيء الذي يضرب لشيء مثلاً فيجعل مثله.

قال الخليل: المَثَلُ: الشيء يضرب للشيء فيجعل مثله. والمَثَلُ: الحديث نفسه. وأكثر ما جاء في القرآن نحو قوله جلَّ وعزَّ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ * فِيهَا أَنْهَارٌ﴾، فَمَثَلُهَا هو الخبر عنها.^١

وقال ابن السكيت: المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ويوافق معناه معناه شبهوه بالمثل الذي يعمل عليه غيره.^٢

وقال الراغب الأصفهاني: المَثَلُ عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة، ليبين أحدهما الآخر ويصوره. نحو قولهم: الصَّيْفُ ضَيَّعَ اللَّبَنَ فَإِنْ هَذَا الْقَوْلُ يَشْبَهُ قَوْلَكَ: أَهْمَلْتُ وَقْتُ الْإِمْكَانِ أَمْرَكَ.^٣

وقال أبو هلال العسكري: أصل المَثَلُ: التماثل بين الشيئين في الكلام كقولهم: (كَمَا تَدِينُ تَدَانُ)، وهو من قولك: هذا مِثْلُ الشيء وَمِثْلُهُ، كما تقول: شَبَّهَهُ وَشَبَّهَهُ، ثُمَّ جَعَلَ كُلَّ حِكْمَةٍ سَائِرَةٍ مَثَلًا، وَقَدْ يَأْتِي الْقَائِلُ بِمَا يَحْسُنُ أَنْ يَتِمَّثَلَ بِهِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَتَّفَقُ أَنْ يَسِيرَ فَلَا يَكُونُ مَثَلًا.^٤

قال المبرد: المَثَلُ مأخوذ من المِثَال، وهو: قولٌ سائرٌ يُشَبَّهُ بِهِ حَالُ الثَّانِي بِالْأَوَّلِ، وَالْأَصْلُ فِيهِ التَّشْبِيهُ، فَقَوْلُهُمْ: "مِثْلُ بَيْنَ يَدَيْهِ" إِذَا انتصب معناه أَشَبَّهَ الصُّورَةَ الْمُنْتَصِبَةَ، وَ "فُلَانٌ أَمَثَلُ مَنْ فُلَانٍ"؛ أَيِ أَشَبَّهُ بِمَا لَهُ مِنَ الْفَضْلِ. وَالْمَثَالُ: الْقِصَاصُ لِتَشْبِيهِهِ حَالِ الْمَقْتَصَرِّ مِنْهُ بِحَالِ الْأَوَّلِ، فَحَقِيقَةُ الْمَثَلِ مَا جُعِلَ كَالْعَلَمِ لِلتَّشْبِيهِ بِحَالِ الْأَوَّلِ، كَقَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ:

كَانَتْ مَوَاعِيْدُ عُرْقُوبٍ هَذَا مَثَلًا **** وَمَا مَوَاعِيْدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيْلُ

١ - العين (٢٢٨ / ٨)

٢ - عنابه القاضي وكفاية الرازي (٣٦٣ / ١)

٣ - المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٥٩)

٤ - جمهرة الأمثال (٧ / ١)

فمواعيد عرقوب عَلم لكل ما لا يصح من المواعيد.

قال الزمخشري: المَثَلُ في الأصل بمعنى المَثَلِ أي: النظير يقال مثل ومثل ومثيل كشيء وشبهه وشبيهه ثم قال: ويستعار للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة.^١

وقيل: أصل المَثَل: الوصف، هذا مثل كذا، أي وصفه مساو لوصف الآخر بوجه من الوجوه. والمَثَل: القول السائر الذي فيه غرابة من بعض الوجوه. وقيل: المَثَل، ذكر وصف ظاهر محسوس وغير محسوس، يستدل به على وصف مشابه له من بعض الوجوه، فيه نوع من الخفاء ليصير في الذهن مساوياً للأول في الظهور من وجه دون وجه.^٢

فوائد تعلم أمثال القرآن:

لا شك أن علم أمثال القرآن من أَجَلِّ العلوم وأشرفها، فبتعلمه يُفهمُ عن الله تعالى مراده، وتُمتثل أوامره، وتُجتنب نواهيه.

قال الماوردي: من أعظم علم القرآن علم أمثاله والناس في غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال وإغفالهم الممثلات والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام والناقة بلا زمام.^٣

وقال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه، بكيت على نفسي، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].^٤

وعن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني لأني سمعت الله يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.^٥

١ - البرهان في علوم القرآن (١ / ٤٩٠)

٢ - البحر المحيط في التفسير (١ / ١٢٢)

٣ - الإتيان في علوم القرآن (٤ / ٤٤)

٤ - تفسير ابن كثير (٤ / ٥٦٨)

٥ - رواه ابن أبي حاتم - رقم: ١٧٣٢٧

قال الزركشي: وقد عده الشافعي مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن فقال ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته المثبتة لاجتناب معصيته وترك الغفلة عن الحفظ والازدياد من نوافل الفضل.^١

ومن فوائده كذلك تحصيل ملكة البيان، وتعلم أسلوب من أساليب البلاغة القرآنية. قال الزركشي: ومن حكمته تعليم البيان وهو من خصائص هذه الشريعة والمثل أعون شيء على البيان.^٢

فائدة ضرب الأمثال في القرآن:

المثل يقرب المعنى إلى الأذهان؛ لأنه يصور المعاني بصورة الأشخاص فتكون أثبت في الأذهان، ويشبهه الخفي بالجلي والشاهد بالغائب، ويقرّب المراد للعقل ويصوره بصورة المحسوس، وله تأثير غريب في السمع، ووقع عجيب على النفس.

قال ابن القيم: ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقريب والمراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس، وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم وعلى الثواب والعقاب وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر والله أعلم.^٣

وقال الزركشي أيضاً: الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والشاهد بالغائب فالمرغب في الإيمان مثلاً إذا مثل له بالنور تأكد في قلبه المقصود والمزهد في الكفر إذا مثل له بالظلمة تأكد قبحه في نفسه. وفيه أيضاً تبكيت الخصم وقد أكثر تعالى في القرآن وفي سائر كتبه من الأمثال وفي سور الإنجيل سورة الأمثال.^٤

١ - البرهان في علوم القرآن (١ / ٤٨٦)

٢ - البرهان في علوم القرآن (١ / ٤٨٧)

٣ - بدائع الفوائد (٤ / ٩)

٤ - البرهان في علوم القرآن (١ / ٤٨٨)

وقال الزمخشري: التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعاني وإدناء المتوهم من المشاهد فإن كان الممثل له عظيما كان الممثل به مثله وإن كان حقيرا كان الممثل به كذلك فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إلا بأمر استدعته حال الممثل له ألا ترى أن الحق لما كان واضحا جليا تمثل له بالضياء والنور وأن الباطل لما كان بضده تمثل له بالظلمة وكذلك جعل بيت العنكبوت مثالا في الوهن والضعف.^١

الأمثال في القرآن قسمان:

الأمثال في القرآن تنقسم إلى قسمين:

الأول: ظاهرٌ مُصَرَّحٌ بِالْمَثَلِ فِي الْآيَاتِ.

والثاني: كامنٌ لا ذِكرَ لِلْمَثَلِ فِي الْآيَاتِ.

مثال القسم الأول:

قول الله تعالى: ﴿مَثَلُهمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنَرَقٌ يَخْطُلُونَ أَصَابِعُهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.^٢

قال ابن كثير: وتقرير هذا المثل: أن الله سبحانه، شبَّههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورهم بعد التبصرة إلى العمى، بمن استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنَّس بها فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر؛ فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم

١ - البرهان في علوم القرآن (١ / ٤٨٨)

٢ - سورة البقرة: الآية / ١٧ : ٢٠

الضلالة عوضًا عن الهدى، واستجابهم الغي على الرشد. وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر عنهم تعالى في غير هذا الموضع، والله أعلم.^١

قال ابن كثير: وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة، ويشكون تارة أخرى، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم (كَصِيبٍ) والصيب: المطر، الذي نزل من السماء في الظلمات، وهي الشكوك والكفر والنفاق. (وَرَعْدٌ) وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفرع.^٢

قال ابن القيم: ضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين مثلاً نارياً ومثلاً مائياً لما في الماء والنار من الإضاءة والإشراق والحياة فإن النار مادة النور والماء مادة الحياة وقد جعل الله سبحانه الوحي الذي أنزل من السماء متضمناً لحياة القلوب واستنارتها ولهذا سماه روحاً ونوراً وجعل قابليه أحياء في النور ومن لم يرفع به رأساً أمواتاً في الظلمات، وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي أنهم بمنزلة من استوقد ناراً لتضيئ له وينتفع بها وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام، فاستضاءوا به وانتفعوا به.^٣

ومثال ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.^٤

هذا مثل ضربه الله تعالى للنبي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولِلَّذِينَ كَفَرُوا ولما هم فيه من الكفر والضلال ولعدم استجابتهم لداعي الله بأنهم كَالِدَّوَابِّ السَّارِحَةِ التي إذا نعق بها راعيها، أي: أي: دعاها إلى ما يرشدها، لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط، والمعنى: ومثلك يا مُحَمَّدُ ومثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ النَاعِقِ والمنعوق به.

١ - تفسير ابن كثير (١ / ١٨٦)

٢ - تفسير ابن كثير (١ / ١٨٩)

٣ - الأمثال في القرآن (ص: ٩)

٤ - سورة البقرة: الآية / ١٧١

ومثال ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^١.

هذا مثل ضربه الله تعالى لمضاعفة الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وكانت طيبة بما نفسه، وانشرح بها صدره، تُضاعف له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

قال السمرقندي: كمثل زارع زرع في الأرض حبة فَأَنْبَتَتْ الحبة سَبْعَ سَنَابِلٍ، أي أخرجت سَبْعَ سَنَابِلٍ. ﴿فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾، فيكون جملتها سبعمائة. فشبه المتصدق بالزارع، وشبه الصدقة بالبذر، فيعطيه الله بكل صدقة سبعمائة حسنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، أي يزيد على سبع مائة لمن يشاء، فيكون مثل المتصدق كمثل الزارع إذا كان الزارع حاذقاً في عمله، ويكون البذر جيداً، وتكون الأرض عامرة، يكون الزرع مخصباً طيباً فكذلك المتصدق، إذا كان صالحاً، والمال طيباً ويوضع في موضعه، فيصير الثواب أكثر. ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾، أي واسع الفضل لتلك الأضعاف، ﴿عَلِيمٌ﴾، بما ينفقون وبما نوا فيها.^٢

قال ابن كثير: وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها، كما ينفي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف.^٣

ومثال ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَشِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^٤.

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين المنفقين ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾، في سبيل الله ابتغاء مرضات الله لا لعوض ولا لغرض لا ديني ولا دنيوي فضلاً عن سمة السمعة والرياء، وعن

١ - سورة البقرة: الآية / ٢٦١

٢ - بحر العلوم (١ / ١٧٥)

٣ - تفسير ابن كثير (٢ / ٢٥٩)

٤ - سورة البقرة: الآية / ٢٦٥

وصمة المن والأذى ﴿وَتَشْتَبِهًا﴾؛ أي: إحكامًا وتقديرًا لهم ناشئًا من أنفسهم ليثبتوا على ما أمرهم الله به.^١

أصاب هذا البستان مطرٌ شديدٌ فتضاعفت ثماره ضعفين بالنسبة إلى غيره من البساتين وإذا أصابه طلٌّ ومطرٌ يسيرٌ ولو كان رذاذًا كان فيه كفايته هذا البستان فهو لا يحمل ولا يئس أبدًا، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبدًا بل يتقبله الله ويكثره وينميهِ، كل عامل بحسبه.^٢
ومثال ذلك أيضًا قول الله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.^٣

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين مع أصنامهم ومعبوداتهم التي يعبدونها من دون الله تعالى، فيخبر عز وجل أن حال هؤلاء الوثنيين المشركين في دعائهم لتلك الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، ولا تغني عن عبادها شيئًا كحال العطشان الذي يريد الماء من بعيدٍ فيُشيرُ إلى الماء بكفِّهِ كهيئة المنادي، ويدعوه بلسانه منادياً فلا يأتيه أبدًا ولا يستجيب له، وهذا معنى قول مجاهدٍ.

وقيل: الَّذِينَ يدعون الأصنام ويعبدونها من دون الله لا ينفعهم دعاؤها كقابض يده على الماء، فَإِنَّهُ لَا يُحْكِمُ مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

فَإِنِّي وَإِيَّاكُمْ وَشَوْقًا إِلَيْكُمْ ***** كَقَابِضٍ مَاءَ لَمْ تَسْقِهِ أَنَامِلُهُ
وكما قال الآخر:

فَأَصْبَحْتُ مِمَّا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ***** مِنَ الْوَدِّ مِثْلَ الْقَابِضِ الْمَاءِ بِالْيَدِ

فهذا مثل عظيم ضربه الله لبيان خيبة الكفار مع أصنامهم، فَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ جَمَادَاتٌ، لَا تَشْعُرُ بِدُعَائِهِمْ وَلَا تَسْتَطِيعُ إِجَابَتَهُمْ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى نَفْعِهِمْ وَلَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ مِمَّا يَطْلُبُونَهُ إِلَّا اسْتِجَابَةً كَاسْتِجَابَةِ بَاسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ، وَالْمَاءُ جَمَادٌ لَا يَشْعُرُ بِبَسِطِ

١ - الفواتح الإلهية والمفتاح الغيبية (٩٠ / ١)

٢ - تفسير ابن كثير (٦٩٥ / ١)

٣ - سورة الرعد: الآية / ١٤

كَفَّيْهِ وَلَا بَعْطَشِهِ وَحَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُجِيبَ دُعَاءَهُ وَيَبْلُغَ فَاهُ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ أَوْثَانًا، لَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا أَبَدًا لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

ومثال ذلك أيضًا قول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.^١

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين ليبين لهم قبح الشرك وشناعته، يقول لهم: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف، وبين حر مالك قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه.

قال قتادة: هذا مثل ضربه الله للكافر رزقه الله مالاً فلم يقدم فيه خيراً ولم يعمل فيه بطاعة الله ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾، قال: هو المؤمن أعطاه الله مالاً رزقاً حلالاً، فعمل فيه بطاعة الله، وأخذه بشكر ومعرفة حق الله، فأثابه الله على ما رزقه الرزق المقيم الدائم لأهله في الْجَنَّةِ.^٢

وقيل: هو مثل لله تعالى وللأصنام، فالأصنام كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، والله تعالى له الملك، وييده الرزق ويتصرف فيه كيف يشاء.

ومثال ذلك أيضًا قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.^٣

١ - سورة النحل: الآية/ ٧٥، ٧٦

٢ - رواه ابن جرير في تفسيره (١٤ / ٣٠٨)، وابن أبي حاتم - رقم: ١٢٥٩٦

٣ - سورة النحل: الآية/ ٧٦

هذا المثل الثاني ضربَه اللهُ تعالى لنفسِه وللأوثان، فالذي كالأبكم الذي لا يقدر على شيء، وهو عالة على مولاه، كلما كلف بعمل لا يقوم به ولا يحسنه لأنه لا يفهم ولا يفهم عنه، هذا مثل الوثن، لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم، ولا ينفع ولا يضر، ويقوم بشأنه سدنته فيحمل ويُثقل من موضع إلى موضع، ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

قيل: الذي يأمر بالعدل هو الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ.....﴾ [النحل: ٩٠]، ومن لوازم الأمر بالعدل، الكلام الذي نفي عن الأول فإنه: ﴿أَبْكُمْ﴾، ومن لوازم الأمر بالعدل: القدرة وهي منتفية عن الأول فإنه: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾، ومن لوازم الأمر بالعدل: القيام على شؤون غيره، وقضاء حوائجهم، كما قال تعالى: ﴿أَقَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وهو منتفٍ عن الأول فإنه: ﴿كُلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾، ومن لوازم الأمر بالعدل: تعدي النفع إلى الغير، فالأمر بالعدل يأتي بكل خير، وهو منتفٍ عن الأول؛ فإنه لا يتأتى منه خير: ﴿أَيْنَمَا يُوجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾، فلا يستويان أبدًا.

وقال ابن عباس: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾، إلى آخر الآية: يعني بالأبكم الذي هو كل على مولاه: الكافر، وبقوله: ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾: المؤمن، وهذا المثل في الأعمال.^١

ومثال ذلك أيضًا قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.^٢

١ - رواه ابن جرير في تفسيره (١٧/ ٢٦٣)، وابن أبي حاتم - رقم: ١٢٦٠٣

٢ - سورة إبراهيم: الآيات / ٢٤ - ٢٦

لما شرح الله عز وجل أحوال الأشقياء وأحوال السعداء، ضرب مثلاً يبين فيه حكم الصنفين المثل الأول: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهي شَهَادَةُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) إشارة إلى الرسالة الخالدة رسالة التوحيد، رسالة الأنبياء جميعاً عليهم السلام، وأن هذه الرسالة في صفائها ونقاها، ورسوخها وثباتها، وشموخها واستعلائها، وعموم نفعها للخلق جميعاً، كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةِ الْمَنْظَرِ والصُّورَةِ والشَّكْلِ، وهي كذلك طَيِّبَةُ الرَّائِحَةِ، وطَيِّبَةُ الثَّمَرِ، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾، وهذه الشجرة أيضاً أَصْلُهَا ثَابِتٌ رَاسِخٌ، لا تززعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوى عليها معاول الطغيان، تطل على الشر والظلم والطغيان من علو، وهي في علوها بعيدة عَنْ عُقُودَاتِ الْأَرْضِ، صَافِيَةٌ مِنَ الْأَكْدَارِ والشَّوَائِبِ، ﴿وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾، فهي رسالة سماوية الأصل، ربانية المصدر، صافية المنبع، لم تكدرها الفلسفات، ولم تغيرها النظم الوضعية، وهي كذلك دائمة الخير ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، فخيرها لا ينقطع فكما أن هذه الشجرة لا ينقطع ثمرها، فكذلك هذه الرسالة العظيمة لا ينقطع خيرها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يزال أمرها في ازدياد، حتى تبلغ مشارق الأرض ومغاربها، وحتى تدخل كل مصر، وحتى يبلغ نور هذه الرسالة كل بيت.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، المراد بالكلمة الخبيثة كلمة الكفر، إشارة للشرك بالله تعالى، فالشَّركُ خبيثٌ كالشجرة الخبيثة التي لا نفع فيها، ولا فائدة لها، والشرك لا نماء له ولا روح فيه، وكذلك الشجرة الخبيثة لا نماء لها وروح فيها.

﴿اجْتُمَتَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾، والكلمة الخبيثة قد يكون لها قعقة أحياناً، وقد تملء الدنيا ضجيجاً، ولكنها سرعان ما تحبو وتنطفئ جذوتها، وتسكت فلا يسمع لها صوتٌ، وكذلك الشجرة الخبيثة قد تهيج وتتعالى وتتنفش وتتشابك، وسرعن ما تذبل وتضمحل ويضمحل ونزوي كأنها ما كانت، والكلمة الخبيثة ليس لها أصل، ولا تستند إلى قوة، ولا تصدر عن ثقة، لا تنتظر إلا عاصفة الإيمان لتزول من مكانها، وكذلك الشجرة الخبيثة ليس لها جذور تضرب في الأرض، ولا ثبات لها، ولا رسوخ فيها، ويخيل إلى بعض الناس أنها لا يمكن اقتلاعها، وهي أضعف ما تكون، لا تثبت أمام أدنى ريح.

ومثال ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾^١.

هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى للمشركين وأصنامهم التي يعبدونها مُنْبِّهًا على ضعفها وحقارتها وعجزها وعلى سخافة عقول عابديها.

ووصفها الله تعالى تلك الأوثان بوصفين ظاهرين الأول: أنها عاجزة عن خلق أصغر مخلوق وأحق شيء في نظرهم وهو الذباب، ولو اجتمعت كل آلهتهم المزعومة من أصنام وأوثان، ومن أشخاص عبدوا من دون الله ومن وقيم ومبادئ، وأوضاع، يستنصرون بها من دون الله، ويستعينون بقوتها، ويستغيثون بها ويطلبون منها النصر والغيث، والحفظ وغير ذلك، كل هؤلاء مجتمعين «لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ».

والوصف الثاني: أن هذه الأصنام عاجزة عن دفع الأذى عن نفسها ولو كان الأذى من أضعف مخلوق، ولو سلبها الذباب شيئاً ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك، فكيف يُرجى منها النفع، وكيف يُخشى منها الضرر، ولا نفع عندها ولا ضرر.

والذُّبَابُ من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، والأوثان أضعف من الذباب وأحقر، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

ومثال ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^٢.

هذا مثل ضربه الله تعالى لنوره في قلب المؤمن، وقد أخبرنا الله تعالى أنه هو نور السموات والأرض، فمن صفاته تعالى أنه نور، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يَقُولُ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورٌ

١ - سورة الحج: الآية/ ٧٣

٢ - سورة النور: الآية/ ٣٥

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبِّتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاعْفُ عَنِّي مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»^١.

وهو سبحانه وتعالى هادي أهل السماوات والأرض، وهو النور الذي يهتدي به الخلق جميعاً، فالكل مفتقر إلى هدايته، والكل يحتاج لنوره، والله عز وجل جعل القرآن العظيم نوراً يستضاء به من ظلمات الكفر وغياهب الجهل، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾^٢.

وبعث إلينا رسوله صلى الله عليه وسلم نوراً، يهدي الله تعالى به من الجاهالة، ويبصر به من العمى، ويخرج العباد به من الظلمات إلى النور، قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾^٣.

فهو سبحانه نور، وحجابه النور، وكتابه نور، ورسوله نور، فكيف يضل من آمن به، وكيف يضل من اتبع كتابه، وكيف يضل من اقتدى برسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي: مثل نور الله تعالى في قلب المؤمن، وهو النور الذي يهتدي به المؤمن، كما قال تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر - ٢٢].^٤

﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، والمِشْكَاةُ: كُوَّةٌ فِي الْبَيْتِ لَا مَنْفَذَ لَهَا، هَذِهِ الْكُوَّةُ فِيهَا مِصْبَاحٌ وَهُوَ السِّرَاجُ.

﴿الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ﴾، هَذَا الضَّوُّ الْمَشْرِقُ مِنَ الْمِصْبَاحِ فِي رُجَاةٍ صَافِيَةٍ.

١ - رواه البخاري - كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل، حديث رقم: ٦٣١٧، ومسلم - باب صلاة

المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم: ٧٦٩

٢ - سورة النساء: الآية/ ١٧٤

٣ - سورة المائدة: الآية/ ١٥

٤ - تفسير البغوي (٤٥ / ٦)

﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾، هَذِهِ الزُّجَاجَةُ فِي صَفَائِهَا كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ مِنَ الدُّرِّ مُضِيٌّ
يَتَلَأُلُ نَوْرُهُ.

﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾، هَذَا الْمَصْبَاحُ الْمَضِيُّ هَذَا الْمَصْبَاحُ يَسْتَمِدُّ نَوْرَهُ مِنْ
زَيْتِ شَجَرَةٍ مِنَ الزَّيْتُونِ مُبَارَكَةٍ، بَارَكَ اللَّهُ فِي أَغْصَانِهَا، وَأَوْرَاقِهَا، وَثَمَارِهَا.

﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، فِي مَكَانٍ وَسْطٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: شَجَرَةٌ بِالصَّحْرَاءِ لَا يَظْهَرُ
شَجَرٌ وَلَا جَبَلٌ وَلَا كَهْفٌ وَلَا يَوَارِيهَا شَيْءٌ هُوَ أَجُودُ لَزِيَّتِهَا.^١

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، زَيْتُهَا فِي غَايَةِ الصَّفَاءِ وَالنَّقَاءِ، يَكَادُ مِنْ شِدَّةِ
صَفَائِهِ أَنْ يُضِيءَ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ.

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾، فَالْمَشْكَاءُ تَعَكُّسُ النُّورِ وَتَزْيِيدُهُ، وَالْمَصْبَاحُ مَشْرِقُ بَنُورِهِ، وَالزُّجَاجَةُ مَنِيرَةٌ
لِصَفَائِهَا، وَزَيْتُ الْمَصْبَاحِ يَكَادُ أَنْ يُضِيءَ لِصَفَائِهِ.

وَهَكَذَا نُورُ اللَّهِ تَعَالَى فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ، يَغْمُرُهُ وَيَغْشَاهُ.

فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسَةٍ مِنَ النُّورِ: فَكَلَامِهِ نُورٌ، وَعَمَلِهِ نُورٌ، وَمَدْخَلُهُ نُورٌ، وَمَخْرَجُهُ نُورٌ،
وَمَصِيرُهُ إِلَى النُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْجَنَّةِ.^٢

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، يُوَفِّقُ اللَّهُ إِلَى هِدَايَتِهِ وَدِينِهِ مَنْ يَخْتَارُهُ وَيَصْطَفِيهِ وَيُحِبُّهُ.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ
مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهَدَايَةَ فَيُيسِّرُ لَهُ أَسْبَابَهَا،
وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغَوَايَةَ وَالضَّلَالَ.

وَمِثَالُ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٌ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ
مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّاهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ

١ - تفسير ابن أبي حاتم - رقم: ١٤٥٩٩

٢ - تفسير الطبري (١٧ / ٣٠٣)

كَطُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ الْجَنِيِّ يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَأَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ^١.

فَسَمَّ اللَّهُ تَعَالَى الْكُفَّارَ فِي هَذَيْنِ الْمُثَلِّينِ إِلَى قَسَمَيْنِ: دَاعِيَةٍ وَمَقْلَدٍ، ثُمَّ ضَرْبِ مِثْلِ الْعُبَادِ مِنَ الْكُفَّارِ، الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ وَلَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْجَهْلِ الْمَرْكَبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٌ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].^٢

يُخْبِرُنَا اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ أَعْمَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ تَعَالَى مِثْلُهَا كَمِثْلِ السَّرَابِ الَّذِي يَرَى فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، فِي مُتَنَصِّفِ النَّهَارِ كَأَنَّهُ مَاءٌ فَإِذَا رَأَى الظَّمْآنُ هَذَا السَّرَابَ، حَسِبَهُ مَاءً فَاسْتَبَشَرَ وَقَصَدَهُ لِيَشْرَبَ مِنْهُ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا، فَكَذَلِكَ الْكَافِرُ يَحْسِبُ أَنَّهُ قَدْ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا، وَأَنَّهُ سَيَجْزِي عَلَى صَالِحِ عَمَلِهِ هَذَا، فَإِذَا وَافَى اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَحَاسِبُهُ عَلَى أَعْمَالِهِ، وَسَأَلَهُ عَلَى أَعْمَالِهِ، لَمْ يَجِدْ لَهُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ قَدْ قُبِلَ، لِعَدَمِ إِخْلَاصِهِ لِلَّهِ تَعَالَى فِيهَا، وَلِعَدَمِ سَبِيلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا، وَهُمَا شَرْطَانِ فِي صِحَّةِ كُلِّ عِبَادَةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^٣.

وَقَالَ فَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ. قِيلَ يَا أَبَا عَلِيٍّ: مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: الْعَمَلُ لَا يُقْبَلُ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، الْخَالِصُ: إِذَا كَانَ لِلَّهِ وَالصَّوَابُ: إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ.^٤

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى عَنْ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^٥.

١ - سورة النور: الآية/ ٣٩، ٤٠

٢ - تفسير ابن كثير (١/ ١٩٢)

٣ - سورة الملك: الآية/ ٢

٤ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٩٥)

٥ - سورة الفرقان: الآية/ ٢٣

﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنِ اللَّهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْعُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرُدُّونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَخْطُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْعُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرُدُّونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَخْطُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ»^١.

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ.....﴾.

وهذا المثل ضربه الله تعالى لذوي الجهل البسيط من الأتباع المقلدين، الصم البكم الذين لا يعقلون، المقلدون لأئمة الكفر، فهؤلاء مثلهم كمثل إنسان في بحر عميق جداً هذا البحر ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾، ظلمات ثلاث، ظلمة الموج الذي في قاع البحر، وظلمة الموج الذي على سطح البحر، وظلمة السحاب الذي يحجب شعاع الشمس، فهي ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، إذا أخرج هذا الإنسان يده وهو على هذه الحال لم يكدرها من شدة هذا الظلام، وكذلك حاله في الدنيا، لما ابتعد عن نور الله تعالى الذي لا يكون إلا بالإيمان به تعالى صار يتخبط في ظلمات الكفر، فكلامه ظلمة، وسمعه ظلمة، وبصره ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات في النار، لأن الجزاء من جنس العمل؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾^٢.

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا

١ - رواه البخاري - كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، حديث رقم: ٤٥٨١، ومسلم -

كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، حديث رقم: ١٨٣

٢ - سورة الإسراء: الآية/ ٩٧

وَفَجَّرْنَا خِلَاهُمَا نَهْرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُدِّدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فُتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ١.

هذا مثل ضربه الله تعالى لبيان أن الكافر لا عاصم له من أمر الله تعالى، ولا ناصر له من الله تعالى، مهما كان عنده من أسباب الغنى وقوة المنعة، وهو مثل لرجلين أحدهما مؤمن عابد لله تعالى، والآخر كافر بالله تعالى، الدنيا أكثر همه ومبلغ علمه، جعل الله لأحدهما جنتين أي: بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخل المكددة في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجود؛ وآتت كل واحدة من الجنتين أكلها وأخرجت ثمرها ولم تنقص منه شيئاً والأنهار تجري فيهما بغير انقطاع تسقي ما فيهما من الزروع والنخيل، فلما رأى صاحب الجنتين الثمار تنوء بحملها الأشجار، وتنير كأنها مصابيح في الظلام، وأعجبه حسنهما بادر صاحبه المؤمن وكان يحاوره بقوله: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، فنسب الفضل لنفسه، وجحد نعمة الله تعالى عليه، وتكبر على صاحبه بغناه وبما رزقه الله تعالى من مال وولد، ودخل الكافر جنته تلك وأخذ بيد صاحبه المسلم، فأدخله معه جنته وجعل يطوف به فيها، ويريه عجائبها، ثم قال هذا الكافر المعجب بما لم تعمل يده: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُدِّدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾، إنكاراً منه للبعث والحساب، ثم قال: وعلى فرض قيام الساعة ﴿وَلَئِن رُدِّدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾، ظن أن الله تعالى أغناه في الدنيا ورزق المال والأولاد لكرامته عليه، فقال له صاحبه المؤمن منكراً عليه: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ

سَوَّاكَ رَجُلًا»، أي: خلقك من تراب وهو أصلك وأصل البشر، ثم من نطفة وهي المادة القريبة ثم سواك رجلاً أي: صيرك إنساناً كامل الخلقة، في أحسن تكوين رداً على قوله: ﴿مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، والقادر على بدأ الخلق قادر على إعادته، ثم قال له صاحبه المؤمن منكرًا عليه ما قاله: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، وأعلن توحيده الله تعالى، ونفى عن نفسه الشرك بالله تعالى، فقال: لكن أنا شأني واعتقادي أن الله ربِّي.

ثم أقبل عليه يلومه على كفره فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ فإن شاء أبقاها لك وإن شاء أفناها وأهلكك، وأنها ما أثمرت إلا بقدره الله وفضله. فَمَا شَاءَ اللَّهُ كان وما لم يشأ لم يكن.

ثم رد على افتخاره بالمال والولد فقال: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ أي: إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى، وأرجو أن يرزقني الله سبحانه جنة خيرًا من جنتك في الدنيا أو في الآخرة أو في فيهما، ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾، ويرسل على جنتك التي ظننت أنها لا تفنى عذابًا من السماء يقتلع أشجارها ويتلف زرعها ولا ينبت فيها شيئًا، ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾؛ أو يغور مأوها غائرًا في الأرض لا تستطيع إخراجه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

فأهلك الله جنته ووقع ما لم يكن في حسابه مما خوّفه به صاحبه المؤمن من إرسال العذاب على جنته، التي اغترّ بها حتى صرفته عن عبادة ربه تعالى، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾. فأصبح نادماً متأسفًا يضرب إحدى يديه بالأخرى على الأموال التي ذهبت والجنة التي تلفت.

﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

أي: يا ليتني لم أقدم على عبادة ربي أحداً لا عشيرةً ولا ولداً، افتخر بهم وأطلب العزَّ بقرهم، وحاله في ذلك حال أولئك الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾^١.

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾.

أي: لم تكن له عشيرةٌ يلتجئ إليها وينتصر بها، ولا نفعه النَّفَرُ الذين افتخر بهم فيما مضى، وما كان في نفسه ممتنعاً بقوَّته عن انتقام الله منه بإهلاكه لجنته.

ومثال ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^٢.

هذا مثل ضربه الله تعالى لبيان حقيقة الحياة الدنيا، في فنائها وسرعة زوالها وتصير أيامها وانقضائها، بنبات الأرض الذي أخرجته الله تعالى من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، حتى إذا تزينت الأرض بما خرج على رباها وسهولها من الزهور النضرة المختلفة الأشكال والألوان، والنباتات والزرور والثمار اليانعة، على اختلاف أنواعها وأصنافها.

حتى إذا ظنَّ أهلها الذين زرعوها أنهم قادرون على حصادها وقطف ثمارها جاءتها صاعقة، أو ريح بادرة، فيبست منها الأوراق، وتلفت منها الثمار، وأعقب خضرتها الاصفرار، وتبدلت النَّضَارَةُ بهشيمٍ تذروه الرِّياح، وهكذا شأن الدنيا، لا تدوم زهرتها، ولا يبقى رونقها، إذا أينعت نعت، وإذا حلت أوحلت.

إنما الدنيا بلاءٌ وكُدٌ ***** واكتئابٌ قد يسوقُ اكتئاباً
ما استطاب العيشَ فيها حليمٌ ***** لا ولا دامَ له ما استطاب

١ - سورة غافر: الآية/ ٨٤، ٨٥

٢ - سورة يونس: الآية/ ٢٤

بينما الإنسان حي قوي ***** إذ دعاه يومه فأجابا
أي عيشٍ دام فيها لحي ***** أي حي مات فيها فأبا

فالشباب في الحياة كالنضرة في النبات، وكالرونق للزهرة، سرعان ما يعقبه المشيب، والصحة لا تدوم في الأبدان، كما لا تدوم الزهور والثمار على الأغصان، لأن الدنيا ليست بدار إقامة ولا استيطان، وقد قال: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»^١.

وكثيراً ما يضرب الله تعالى المثل للحياة الدنيا بنبات الأرض، قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾^٢.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^٣.

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾^٤.

ومثال ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾^٥.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ٣٧٠٩، والترمذي - أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في مثل ابن آدم وأهله وولديه، حديث رقم: ٢٥٣٤، وابن ماجه - كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، حديث رقم: ٤١٠٩، والحاكم - كتاب الرقاق، حديث رقم: ٧٨٥٩، بسند صحيح

٢ - سورة الكهف: الآية/ ٤٥

٣ - سورة الزمر: الآية/ ٢١

٤ - سورة الحديد: الآية/ ٢٠

٥ - سورة التحريم: الآية/ ١٠

هذا مثل ضربه الله تعالى للذين كفروا، لإيقاظهم من غفلتهم وليعتبروا بحالة هاتين المرأتين، وتنبيهها للذين كفروا، أي ليذكروهم بأن الله لا يصرفه عن وعيده صارف فلا يحسبوا أن لهم شفعا عند الله، ولا أن مكائهم من جوار بيته وعمارة مسجده وسقاية حججه تصرف غضب الله عنهم، فإن هم أقلعوا عن هذا الحسبان أقبلوا على التدبر في النجاة من وعيده بالنظر في دلائل دعوة القرآن وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فلو كان صارف يصرف الله عن غضبه لكان أولى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيهما رسولي رب العالمين.^١

فإنه لا يغني أحد في الآخرة عن أحد، فلا يغني أخ عن أخيه وزوج عن زوجته ولا أب عن أبيه ولا صاحب عن صاحبه، إذا فَرَّقَ الدِّينُ بينهما، فإن امرأة نوح وامرأة لوط لما كانت كل واحدة على دين قومها من الكفر بالله تعالى ولما كانتا مشركتين، وكانت امرأة نوح تقول للناس عن زوجها نبي الله: إنه مجنون، وتخالفه في الاعتقاد، وكانت امرأة لوط تخبر قومه بأضيافه، وترضى بفعالهم القبيحة، وتوافقهم على سوء معتقدهم، وهذه خيانة منهما لدين الله تعالى وخيانة لنبيين من أنبياء الله الكرام عليهم الصلاة والسلام، ولا يتصور أحد أن الخيانة هنا هي الخيانة في الفراش، وأنه الزنا فقد أجمع المفسرون على أنه ما بغت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتهم في الدين.

﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾.

ولما كانت كل واحدة منهما بهذا القرب من نبي من أنبياء، فهي زوجته وأم أولاده، ربما يتوهم بعض الناس أنها سيكون لها حظ ونصيب من شفاعته، وأنها ستدخل يوم القيامة مدخله، وأنها ستكون معه في الآخرة كما كانت معه في الدنيا، دفع الله تعالى هذا التوهم، فإن الكفر يقطع كل صلة بين الكافر والمؤمن، لذلك قال الله تعالى: ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.^٢

١ - تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير (٢٨ / ٣٧٤)

٢ - سورة الممتحنة: الآية / ٣

﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

وإذا كان حال الناس يوم القيامة أنه لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا، مع الموافقة في الاعتقاد، والمتابعة على الدين كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.^١

وكما ثبت ذلك عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، يَا أُمَّمُ الرُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، اشْتَرِيَا أَنْفُسَكُمَا مِنَ اللَّهِ لَا أَمْلِكُ لَكُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، سَلَانِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمَا».^٢

فما بالك بمن كفر بالله تعالى وأعرض عن هدى المرسلين.

﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾.

دليل قاطع على أن من كفر بالله تعالى فلا حظ له ولا نصيب في جنة الله تعالى وأنه أبعد الناس عن رحمة الله تعالى، كما قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾.^٣

ومثال ذلك أيضًا قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَانِتِينَ﴾.^٤

هذا مثل ضربه الله تعالى لِلَّذِينَ آمَنُوا لِحُثِّهِمْ عَلَى الصَّبْرِ فِي الشَّدَائِدِ، واحتساب الأجر في الأذى على تمسكهم بدين الله تعالى، وألا يكونوا في عند الشدة أضعف من امرأة فرعون التي صبرت على أذى فرعون، وفي براءة المؤمنين كذلك من ذوي قرابتهم الذين بقوا على الكفر

١ - سورة الإنفطار: الآية / ١٩

٢ - رواه البخاري- كتاب المناقب، باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية، حديث رقم: ٣٥٢٥، ومسلم-

كتاب الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، حديث رقم: ٢٠٦

٣ - سورة المائدة: الآية / ٧٢

٤ - سورة التحريم: الآية / ١١، ١٢

ولم يؤمنوا بالله تعالى، وأ، المؤمنون لا تضربهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، فقد كان فرعون أعتى أهل الأرض على الله وأبعدهم من الله. فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، وكانت امرأة فرعون قد أعلنت إيمانها بالله تعالى وتبرأت من فرعون وعمله، وآثرت رضى الله تعالى على ما هي فيه من النعيم، ولم تبال بسخط فرعون وغضبه، فاطلّع فرعون على إيمانها، ودعت ربها فقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾، قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار.

﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾. ونجني من فرعون ونجني من عمله تعني الكفر، وقيل: من عمله من عذابه وظلمه، وهذا من باب عطف الخاص على العام.

﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. هم أهل مصر المتابعون لفرعون على الكفر، قال الحسن وابن كيسان: نجاها الله أكرم نجاة، ورفعها إلى الجنة، فهي فيها تأكل وتشرب.^١

وقد أثنى عليها النبي صلى الله عليه وسلم ثناء بالغاً فقال: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ».^٢

قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمُ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَانِنِينَ﴾.

وهذا مثل ضربه الله تعالى للذين آمنوا لحثهم على التقوى والخشوع والقنوت لله تعالى، فإن مريم عليها السلام كانت مضرب المثل في العفة والطهارة والعبادة والطاعة لله تعالى.

﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾. مدحها الله تعالى على عفتها وبعدها عن الفواحش، رداً على اليهود عليهم لعنة الله الذين قذفوها بالزنا.

١ - تفسير القرطبي (٢٠٣ / ١٨)

٢ - رواه البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ﴾، حديث رقم: ٣٤١١، ومسلم - كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، حديث رقم: ٢٤٣١، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

﴿فَتَفَحَّنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾. أي: بواسطة الملك، وهو جبريل، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعبسى، عليه السلام.^١

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ﴾. أي: أيقنت أن ما كان فإنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهيًا فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيرًا فهو حق.^٢

﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾. أي: من الطائعين، العابدين، المصلين.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ خُطُوطٍ، وَقَالَ: "اتَّذَرُونَ مَا هَذَا" قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَفْضَلُ نِسَاءٍ أَهْلُ الْجَنَّةِ: حَدِيجَةُ بِنْتُ حُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ".^٣

١ - تفسير ابن كثير (١٧٣ / ٨)

٢ - تفسير ابن كثير (٤٨٠ / ٥)

٣ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢٦٦٨، والنسائي في الكبرى - كتاب المناقب، آسية بنت مزاحم، حديث رقم: ٨٢٩٩، بسند صحيح

التَّلْفِيفُ

تعريف التَّلْفِيفِ:

التَّلْفِيفُ لُغَةً: لَفُّ الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ.^١

واصطلاحاً: هو أن يقصد المتكلم التعبير عن معنى خطر له أو سئل عنه، فيلف معه معنى آخر يلزم المعنى الذي سئل عنه.^٢

وقيل: هو عبارة عن إخراج الكلام مخرج التَّعْلِيمِ بِحُكْمٍ أَوْ أَدَبٍ لَمْ يَرِدِ الْمَتَكَلِّمُ ذَكَرَهُ، وَإِنَّمَا قَصْدُ ذِكْرِ حُكْمٍ خَاصٍ دَاخِلٍ فِي عُمُومِ الْحُكْمِ الْمَذْكُورِ الَّذِي خَرَجَ بِتَعْلِيمِهِ.

وقيل: أَنْ يَسْأَلَ سَائِلٌ عَنْ حُكْمٍ فَيَعْدِلُ الْمَسْئُولُ عَنِ الْجَوَابِ الْخَاصِّ، وَيُجِيبُ بِجَوَابٍ عَامٍ بِتَضْمِينِ الْإِبَانَةِ عَنِ الْحُكْمِ الْمَسْئُولِ عَنْهُ وَعَنْ غَيْرِهِ مِمَّا تَدْعُو الْحَاجَةُ إِلَى بَيَانِهِ.

ويقال له أيضاً: التَّنَاسُبُ، لما بين المذكورين من آصرة القرى التي تفيد السامع فائدة لا غنى له عنها، ويقال له كذلك أسلوب الحكيم.

والتَّلْفِيفُ فَنُّ طَرِيفٍ مِنْ فَنُونِ الْبَلَاغَةِ، وَأَسْلُوبٌ رَائِقٌ مِنْ أَسَالِيبِ الْفَصَاحَةِ، يَنْسَابُ إِلَى النَّفْسِ انْسِيَابًا، يَتَجَلَّى مِنْهُ جَمَالُ الْبَيَانِ، وَتَظْهَرُ فِيهِ بَلَاغَةُ النَّظَامِ.

ونضرب للتَّلْفِيفِ مثلاً من السنة ليتضح لنا معناه؛ فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَزَكَبُ الْبَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطَشْنَا، أَفَتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هُوَ الطَّهُّورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ».^٣

١ - الكليات (ص: ٢٨٢)

٢ - تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر (ص: ٣٤٣)

٣ - رواه أحمد - حديث رقم: ٨٧٣٥، وأبو داود - كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر، حديث رقم: ٨٣، والترمذي - أبواب الطهارة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور، حديث رقم: ٦٩، بسند صحيح

فقد سأل السائل عن حُكْمِ التطهر بماء البحر، فأجابه النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عن سؤاله وزاده جوابًا لاغنى له عنه، وهو حُكْمُ ماء البحر، فإن إذا خفي عليه حُكْمُ ماء البحر من حيث الطهارة، فإن حُكْمَ مَيْتَتِهِ سيكون أشدَّ خفاءً لا محالة، وإذا كان يحتاج إلى معرفة حُكْمِ التطهر بماء البحر، فإنه إلى معرفة حُكْمِ مَيْتَةِ البحر أحوج.

أَمِثْلَةُ التَّلْفِيفِ:

مِثَالُ التَّلْفِيفِ قول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾^١.

ومعنى الآية أن الصحابة رضي الله عنهم لما تاقت نفوسهم إلى تعلم هيئة القمر منه صلى الله عليه وسلم، وقالوا له: يا نبي الله: ما بال الهلال يبدو دقيقًا، ثم لم يزل يكبر حتى يستدير بدرًا؟ نزل القرآن بالجواب بما فيه فائدة للبشر وترك ما لا فائدة فيه، وذلك في قوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾^٢.

فالله تبارك وتعالى قدَّر القمر منازل فأول ما يبدو صغيرًا ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر كقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٩، ٤٠].^٣

وتفسير هذه الظاهرة لا تفيدُ الناسَ شيئًا في دينهم ولا في دنياهم، فأرشدهم الله تعالى إلى ما فيه نفعهم، وهو أنه سبحانه جعل منازل القمر هذه ليعلموا عدد السنين والحساب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^٤.

فالله تبارك وتعالى أمرنا بترك ما لا فائدة فيه من البحث في الظواهر الكونية، وكيفية حدوثها لأنها لا يترتب على معرفتها كبير فائدة، وأرشدنا إلى ما فيه النفع والفائدة لنا.

١ - سورة البقرة: الآية / ١٨٩

٢ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦ / ٣٨٥)

٣ - تفسير ابن كثير (٤ / ٣٨٣)

٤ - سورة يونس: الآية / ٥

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾.^١

فَقَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾، جوابٌ كافٍ عن سؤال الله تعالى له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾، لكنه لما كان يكلم رب العالمين، استرسل في الجواب تلذذاً بالخطاب، وأنساً بالمناجاة، وتشرفاً بتكليم الرحمن جل وعلا له فقال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾، وهذا شأن الحب في كلامه مع محبوبه، لا يريد أن ينقطع، وكأنه افترض سؤالاً ثانياً، وما تفعل بها؟ فقال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾، وهذا هو التلغيف أن يجيب بجواب عام يتضمن الإبانة عن الشيء المسؤول عنه وعن غيره.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.^٢

وردت هذه الآية في سياق ابطال التبني، فهذه الآية نزلت في شأن زيد بن حارثة مولى النبي صلى الله عليه وسلم، كان النبي صلى الله عليه وسلم قد تبناه قبل النبوة، وكان يقال له: زيد بن محمد فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، ويبطل هذا التبني، ولما كان رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يعيش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم؛ فإنه ولد له القاسم، والطيب، والطاهر، من خديجة فماتوا صغراً، وولد له إبراهيم من مارية القبطية، فمات أيضاً رضيعاً، وكان له من خديجة أربع بنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، رضي الله عنهم أجمعين، فمات في حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به، صلوات الله وسلامه عليه، ثم ماتت بعده لستة أشهر.^٣

١ - سورة طه: الآية/ ١٧، ١٨

٢ - سورة الأحزاب: الآية/ ٤٠

٣ - تفسير ابن كثير (٤٢٨/٦)

فكان قائلًا قال: أليس محمدُ أبا زيد بن حارثة، أليس قد تبناه، فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، ينفي أن يكون محمدٌ صلى الله عليه وسلم أبا أحدٍ من رجالهم، ويشملُ النفي زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان مقتضى الجواب أن يقول: ما كان محمدٌ أبا زيد، ولكن أتى الجواب نافيًا الأبوة الكلية لأحد من رجالهم، وانطوى في ذلك نفي الأبوة لزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ من باب التلْفيفِ، فكان الجواب جَوَابًا عَامًّا تَضْمَنُ الْإِبَانَةَ عَنِ الشَّيْءِ الْمَسْئُولِ عَنْهُ سَوَالًا مُقَدَّرًا وَعَنْ غَيْرِهِ لَتَتَمَّ بِهِ الْفَائِدَةُ.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.^١

فهم إنما سألوا عن الأصناف التي يتقربون إلى الله تعالى بإنفاقها، وأي هذه الأصناف أفضل في النفقة، وأعظم للأجر؟

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾، فأجابهم الله تعالى بجواب عام يتضمن الإبانة عن الحكم المسئول عنه، وَيَبَيِّنُ لَهُمْ مَا هُوَ أَوْلَى بِالْجَوَابِ لَهُمْ مِنْ سَوَالِهِمُ الَّذِي سَأَلُوهُ، وما يحتاجونه أكثر من حاجتهم إلى معرفة أي الأصناف أولى بالإنفاق، فقال: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، لأن أفضل العطاء هو ما وافق محله، وناسب موضعه، وهذا هو التلْفيفُ.

قال الزمخشري: فإن قلت كيف طابق الجواب السؤال في قوله: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ﴾، وهم قد سألوا عن بيان ما ينفقون وأجيبوا ببيان المصرف؟

قلت: قد تضمن قوله: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾، بيان ما ينفقونه وهو كل خير، وبنى الكلام على ما هو أهم، وهو بيان المصرف لأنَّ النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها.^٢

وقال الفخر الرازي: في الآية سؤال، وهو أن القوم سألوا عما ينفقون لا عمن تصرف النفقة إليهم، فكيف أجابهم بهذا؟.

١ - سورة البقرة: الآية / ٢١٥

٢ - الكشف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٢٥٧)

والجواب عنه من وجوه أحدها: أنه حصل في الآية ما يكون جواباً عن السؤال وضم إليه زيادة بها يكمل ذلك المقصود، وذلك لأن قوله: ما أنفقتم من خير جواب عن السؤال، ثم إن ذلك الإنفاق لا يكمل إلا إذا كان مصروفًا إلى جهة الاستحقاق، فلهذا لما ذكر الله تعالى الجواب أردفه بذكر المصرف تكميلًا للبيان.^١

١ - مفاتيح الغيب (٦ / ٣٨٢)

التَّقْسِيمُ

تعريفُ التَّقْسِيمِ:

التَّقْسِيمُ لغةً: مصدر قَسَمَ: يقال قَسَمَهُ تَقْسِيمًا، أي: جَزَّاهُ.

والتَّقْسِيمُ: النَّصِيبُ، والحِظُّ من الخَيْرِ أو الشرِّ.

قال الخليل: القَسَمُ مصدر قَسَمَ يَقْسِمُ قَسَمًا، والقِسْمَةُ مصدر الاقتسام، ويقال أيضًا:

قَسَمَ بينهم قِسْمَةً. والقِسْمُ: الحِظُّ من الخير ويجمع على أقسام.^١

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾.^٣

أي نصيب.

التَّقْسِيمُ اصطلاحًا:

قال الزركشي: هو استيفاء المتكلم أقسام الشيء بحيث لا يغادر شيئًا وهو آلة الحصر ومظنة الإحاطة بالشيء.^٤

والتَّقْسِيمُ فن بديع من فنون البلاغة القرآنية، وأسلوبٌ من أساليب القرآن العظيم، به يتجلى جمال الكلام، ويستشعر السامع روعته، ويظهر به رونقه.

أمثلة التَّقْسِيمِ:

مثاله قول الله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.^٥

١ - العين (٥ / ٨٦)

٢ - سورة النساء: الآية / ٨

٣ - سورة الحجر: الآية / ٤٤

٤ - البرهان في علوم القرآن (٣ / ٤٧١)

٥ - سورة البقرة: الآية / ٢٠٠، ٢٠١

فقد قسم الله تعالى الناس إلى قسمين لا ثالث لهما؛ القسم الأول من لا يسأل إلا الدنيا ولا يسعى إلا لها، والقسم الثاني: من يريد الآخرة ويسعى لها سعيها، ويعمل من أجلها ويسأل الله تعالى النجاة فيها.

وهذا من التقسيم الذي هو من جملة ضروب البيان، وهو تقسيم بديع يحصره المقسم إلى هذين النوعين، لا على ما يذهب إليه الصوفية من أن ثم قسمًا ثالثًا لم يذكر لهم تعالى، قالوا: وهم الراضون بقضائه، المستسلمون لأمره، الساكنون عن كل دعاء، وافتشاء.^١

ومثال التقسيم قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.^٢

ومثاله أيضًا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾.^٣ لا تخرج أحوال الإنسان عن هذه الحالات الثلاث، فهو إما أن يكون قائمًا، أو قاعدًا، أو مُضْطَجِعًا على جنبه، فلم يترك سبحانه قسمًا من أقسام الهيئات إلا ذكره في هذين الموضعين.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ﴾.^٤

والسبب في اختلاف الترتيب عن الآيتين السابقتين مُغَايِرَةُ سياق الآية لما قبلها فإن الضر يصيب العبد فيضجعه فقدم الاضطجاع، فإذا زال بعض الضر قعد المضجع وإذا زال كل الضر قام القاعد فدعا لتتم الصحة وتكمل القوة.

١ - البحر المحيط في التفسير (٢/ ٣٠٩)

٢ - سورة آل عمران: ١٩٠، ١٩١

٣ - سورة النساء: الآية/ ١٠٣

٤ - سورة يونس: الآية/ ١٢

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾^١.

وليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع في الأمطار ولا ثالث لهما.

ومثاله أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾^٢.

فاستوفى أقسام الزمان المستقبل، والماضي، والحاضر، ولا رابع لها.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٣.

وهذا التقسيم يستوفي كل مخلوق يدب على وجه الأرض، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ إشارة إلى الزواحف، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾، إشارة إلى بني آدم، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾، إشارة إلى باقي المخلوقات من البهائم وغيرها.

ومثاله أيضًا قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾^٤.

هذه الآية الكريمة جمعت أوقات الصلوات الخمس، فالمراد بالتسبيح هنا: الصلوات الخمس، فعن ابن عباس قال: «كُلُّ تَسْبِيحٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ صَلَاةٌ»^٥.

وعن أبي رزين قال: جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس فقال: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم، فقرأ: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾، صلاة المغرب ﴿وَحِينَ

١ - سورة الرعد: الآية / ١٢

٢ - سورة مريم: الآية / ٦٤

٣ - سورة النور: الآية / ٤٥

٤ - سورة الروم: الآية / ١٧

٥ - رواه الطبري في تفسيره (١٩١ / ١٩)

تُصْبِحُونَ﴿، صَلَاةُ الصُّبْحِ ﴿وَعَشِيًّا﴾، صَلَاةُ الْعَصْرِ ﴿وَحِينَ تَظْهَرُونَ﴾ صَلَاةُ الظُّهْرِ وَقَرَأَ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ.^١

وعن ابن عباسٍ قَالَ: جَمَعَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَوَاقِيتَ الصَّلَاةِ، ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾، قَالَ: الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ، ﴿وَحِينَ تَصْبِحُونَ﴾، الْفَجْرَ، ﴿وَعَشِيًّا﴾، الْعَصْرَ ﴿وَحِينَ تَظْهَرُونَ﴾، الظُّهْرَ.^٢

ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.^٣

قيل جمعت هذه الآية أصناف الناس جميعًا فلا يَخْلُو الْعَالَمُ جَمِيعًا مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ إِمَّا ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَإِمَّا سَابِقٌ مَبَادِرٍ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَإِمَّا مُقْتَصِدٌ فِيهَا.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْأَقْسَامَ الثَّلَاثَةَ خَاصَّةٌ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَنَّهُمْ جَمِيعًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، بِدَلِيلِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.^٤

وهذا التقسيم باعتبار أخذهم بكتاب الله تعالى، وبقدر أخذهم بكتاب الله تعالى تتفاوت درجاتهم في الجنة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾.^٥

هذه الآية استوفت أصناف المؤمنين من هذه الأمة فأصحاب الميمنة هم المقتصدون، وأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم، والسابقون هم السابقون بالخيرات.

١ - رواه عبد الرزاق - الأول من كتاب الصلاة، باب ما جاء في فرض الصلاة، حديث رقم: ١٨٣٥

٢ - رواه ابن جرير انظر تفسير الطبري (١٨ / ٤٧٤)

٣ - سورة فاطر: الآية / ٣٢

٤ - سورة فاطر: الآية / ٣٣

٥ - سورة الواقعة: الآية / ٧ - ١٠

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ
مَا يُرِيدُ﴾^١.

قسمت هذه الآية الناس بالنسبة إلى الإيمان بالله تعالى إلى قسمين لا ثالث لهما.

القسم الأول: مَنْ آمَنَ بالله ورسله.

والقسم الثاني: مَنْ كَفَرَ بالله ورسله، ولا يخلو الناس من أحد هذين القسمين.

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^٢.

والكلام فيها كالكلام عن الآية السابقة، فالناس إما مؤمن موحد، وإما كافر مكذب.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا فَمِنْهُمْ
مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾^٣.

قسمت هذه الآية الناس بالنسبة إلى الإيمان بدعوة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم
إلى فريقين لا ثالث لهما، الأول: مَنْ آمَنَ به وبدعوته، واتبع النور الذي جاء به.

والثاني: مَنْ كفر به، وجحد نبوته، ونابذه العداء، وصدد الناس عنه وعن دينه.

ومنه قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ
لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾^٤.

قال الزركشي: قسم سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتمل عليها الوجود لأنه
سبحانه إما أن يفرد العبد بهبة الإناث أو بهبة الذكور أو يجمعهما له أو لا يهب شيئاً. وقد
جاءت الأقسام في هذه الآية لينتقل منها إلى أعلى منها وهي هبة الذكور فيه ثم انتقل إلى
أعلى منها وهي وهبتها جميعاً وجاءت كل أقسام العطية بلفظ الهبة وأفرد معنى الحرمان

١ - سورة البقرة: الآية/ ٢٥٣

٢ - سورة التَّعَابُثِ: الآية/ ٢

٣ - سورة النساء: الآية/ ٥٤، ٥٥

٤ - سورة الشورى: الآية/ ٤٩، ٥٠

بالتأخير، وقال فيه يجعل فعدل عن لفظ الهبة للتغاير بين المعاني كقوله: ﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءًا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورُ﴾^١.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ..... الآية﴾^٢.

فإن الأسباب التي يتعلق بها حق الغير ثلاثة: الملك والشركة والمعاونة، فإما أن يكون مالكا للشئ ملكا مستقلا، وإما أن يكون شريكا لغيره فيه، وإما أن يكون مُعينًا لصاحبه له فضل عليه، كالوزير، ولا رابع لهذه الأقسام الثلاثة في استحقاق الملك، وكلها منفية عن المخلوق مع الخالق سبحانه، فلا يملك أحدٌ مع الله تعالى مثال ذرة، وليس لأحد مع الله تعالى شرك في الخلق، وليس لله تعالى من خلقه ظهيرٌ يعاونه، فإنه تعالى غني عن خلقه، بل وأكثر من ذلك، لا يشفع أحدٌ عنده سبحانه إلا بإذنه، لذلك قال بعد هذه الثلاثة: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾^٣.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فإنَّ المخلوق يوالي المخلوق لذله؛ فإذا كان له من يواليه عز بوليه؛ والرب تعالى لا يوالي أحداً لذلته تعالى بل هو العزيز بنفسه و ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، وإنما يوالي عباده المؤمنين لرحمته ونعمته وحكمته وإحسانه وجوده وفضله وإنعامه^٤.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^٥.

١ - البرهان في علوم القرآن (٣/ ٤٧٣)

٢ - سورة سبأ: الآية/ ٢٢، ٢٣

٣ - سورة الإسراء: الآية/ ١١١

٤ - مجموع الفتاوى (٨/ ٥١٩، ٥٢٠)

٥ - سورة الأعراف: الآية/ ٨٧

قال أبو حيان: هذا الكلام من أحسن ما تلتطف به في المحاورة إذ برز المتحقق في صورة المشكوك فيه وذلك أنه قد آمن به طائفة بدليل قول المستكبرين عن الإيمان ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ﴾، وهو أيضا من بارع التقسيم إذ لا يخلو قومه من القسمين.^١

١ - البحر المحيط في التفسير (١٠٩ / ٥)

التَّأْكِيدُ

تعريف التَّأْكِيدِ:

التَّأْكِيدُ لغةً: التوثيق والإحكام، يقال: أَكَّدَهُ تَأْكِيدًا: أَي وَثَّقَهُ وَأَحْكَمَهُ، وَالْعَهْدُ الْأَكِيدُ: الْوَثِيقُ الْمَحْكَمُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾^١.
ويقال له التَّأْكِيدُ، والتَّوْكِيدُ.

واصطلاحًا: التَّأْكِيدُ: تابع يقرر أمر المتبوع في النسبة أو الشمول، وقيل: عبارة عن إعادة المعنى الحاصل قبله.

والتَّأْكِيدُ اللفظي: هو أن يكرر اللفظ الأول.^٢

التَّأْكِيدُ أُسْلُوبٌ مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ الْبَلَاغِيَّةِ، وَقَدْ أَنْكَرَ قَوْمٌ وَقُوعَهُ فِي الْقُرْآنِ وَقَالُوا لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ تَأْكِيدٌ بَلْ لَا بَدَّ أَنْ يُفِيدَ الْكَلَامُ مَعْنَى زَائِدًا عَلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ، وَلَا فَائِدَةً فِي مَجْرَدِ التَّأْكِيدِ، وَمِنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ فِي النَّظْمِ إِجْازُ اللَّفْظِ وَاسْتِيفَاءُ الْمَعْنَى.

وَجُمْهُورُ الْأُمَّةِ عَلَى وَقُوعِ التَّأْكِيدِ فِي الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُ نَزَلَ بِلُغَتِهِمُ الَّتِي يَتَحَدَّثُونَ بِهَا وَمِنْ أَسَالِيبِهِمُ التَّأْكِيدُ.

والتَّأْكِيدُ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ الْفَصَاحَةِ وَفَنٌّ بَدِيعٌ مِنْ فُنُونِ الْبَلَاغَةِ، وَأُسْلُوبٌ رَائِقٌ مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، بِهِ يَتَجَلَّى جَمَالُ الْكَلَامِ، وَيُظْهِرُ بِهِ رَوْنَقَهُ، وَيَسْتَشْعِرُ السَّامِعُ رَوْعَتَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَفِي كُلِّ مَوْطِنٍ يَذْكُرُ التَّأْكِيدُ فَائِدَةً، كَمَا سَنَبِينِ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الْغَرَضُ مِنَ التَّأْكِيدِ:

قال الزركشي: والقصد منه الحمل على ما لم يقع ليصير واقعا ولهذا لا يجوز تأكيد الماضي ولا الحاضر لئلا يلزم تحصيل الحاصل وإنما يؤكد المستقبل.^٣

١ - سورة النحل: الآية/ ٩١

٢ - التعريفات (ص: ٥٠)

٣ - البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٨٤)

أَفْسَامُ التَّوَكِيدِ:

ينقسم التَّوكِيدُ إلى قسمين:

توكيدٌ صِنَاعِيٌّ، وتوكيدٌ معنَوِيٌّ.

القسمُ الأوَّلُ: التوكيد الصِّنَاعِيُّ:

ومعنى التوكيد الصِّنَاعِيٌّ أي الذي يَتَعَلَّقُ بِاصْطِلَاحِ النُّحَاةِ.

وهذا القسم ينقسم إلى قسمين: توكيدٌ لفظيٌّ، وتوكيدٌ معنَوِيٌّ.

أَوَّلًا التوكيدُ اللَّفْظِيُّ:

التوكيد اللَّفْظِيُّ وَهُوَ تَكَرُّرُ اللَّفْظِ الْأَوَّلِ إمَّا بِمَرَادِفِهِ، وَإِمَّا بِلَفْظِهِ.

ومثال التوكيد اللَّفْظِيِّ بِمَرَادِفِهِ: قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾^١.

فقوله تعالى: ﴿حَرَجًا﴾ بِكَسْرِ الرَّاءِ - وَهِيَ قِرَاءَةُ نَافِعٍ وَأَبِي جَعْفَرٍ وَشُعْبَةَ ﴿حَرَجًا﴾، ومعناه الضَّيِّقُ، وقال الرَّجَّاجُ: الحَرْجُ: أَضْيَقُ الضَّيِّقِ - تَأْكِيدٌ لِقَوْلِهِ: ﴿ضَيِّقًا﴾، وَكَرَّرَ الْمَعْنَى تَأْكِيدًا، وَحَسَّنَ ذَلِكَ اخْتِلَافُ اللَّفْظِ فَإِنَّ الْحَرْجَ مُرَادِفٌ لِلضَّيِّقِ أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ.

وفائدة التوكيد: المبالغة في الضَّيِّقِ، فَإِنَّ الْحَرْجَ ضَيِّقٌ زَائِدٌ، أَوْ هُوَ أَضْيَقُ الضَّيِّقِ.

ومثاله أيضًا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾^٢.

فقوله تعالى: ﴿سُبُلًا﴾، تَأْكِيدٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِجَاجًا﴾.

وَالْفُجْجُ: الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ. وَالْجَمْعُ: الْفِجَاجُ.

وَالْفُجْجُ: الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، أَي: جَعَلْنَا بَيْنَ الْجَبَالِ طَرِيقًا حَتَّى يَهْتَدُوا إِلَى مَقَاصِدِهِمْ، وَ﴿سُبُلًا﴾ جَمْعُ سَبِيلٍ؛ أَي: طَرِيقٍ.

١ - سورة الأنعام: الآية/ ١٢٥

٢ - سورة الأنبياء: الآية/ ٣١

وفائدة التَّوكِيدِ: بيان أنَّها طرقٌ نافذةٌ مسلوكةٌ لأنَّ الفَجَّ قد يكون طريقاً نافذاً مسلوفاً وقد لا يكون.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾^١.
فقوله تعالى: ﴿سُودٌ﴾، تأكيد لقوله: ﴿غَرَابِيبُ﴾، و«غَرَابِيبُ»: جمع غَرِيبٍ، والغريب: اسم للشيء الأسود الحالك سواده، وهو الغراب لشهرة الغراب بالسواد. وفائدة التوكيد: المبالغة في السَّوَادِ، فهي سوداء حَالِكٌ سَوَادُهَا.

ومثال التوكيد اللَّفْظِي بلفظه قول الله تعالى: ﴿هَيَّهَاتَ هَيَّهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾^٢.
فإن قوله تعالى: ﴿هَيَّهَاتَ﴾، في الموضع الثاني تأكيدٌ لفظيٌّ لقوله تعالى: ﴿هَيَّهَاتَ﴾، في الموضع الأول.

و﴿هَيَّهَاتَ﴾ اسم فعل ماضٍ بمعنى: بَعُدَ.

وفائدة التوكيد هنا: المبالغة في نفي البعث وانكاره، واستبعاد وقوعه.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا (١٥) قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ﴾^٣.

فإن قوله تعالى: ﴿قَوَارِيرًا * قَوَارِيرًا﴾، لَفْظٌ: ﴿قَوَارِيرًا﴾ الثاني تأكيدٌ لفظيٌّ لَنَظِيرِهِ.
وفائدة التَّوكِيدِ هنا: زيادةُ الإيضاح أنَّ هذه الآنية وإن كانت من فِضَّةٍ إلا أنَّ لها رِقَّةَ الرَّجَاجِ وصفاءه.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَهْلٍ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُؤُودًا﴾^٤.

فإن قوله تعالى: ﴿أَمْهَلُهُمْ﴾، تأكيدٌ لفظيٌّ لقوله تعالى: ﴿فَمَهْلٍ﴾، وَحُولَفَ بَيْنَ الْفَعْلَيْنِ في التَّعْدِيَةِ فذكر مرةً بِالتَّضْعِيفِ ﴿فَمَهْلٍ﴾ وأخرى بالهمز: ﴿أَمْهَلُهُمْ﴾ لِيَحْسُنَ تَكْرِيرُهُ.

١ - سورة فاطر: الآية/ ٢٧

٢ - سورة المؤمنون: الآية/ ٣٦

٣ - سورة الإنسان: الآية/ ١٥، ١٦

٤ - سورة الطارق: الآية/ ١٧

وفائدة التأكيد هنا: قَصْدُ زِيَادَةِ التَّسْكِينِ والتَّصْبِيرِ لِقَلْبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^١.

فإن قوله تعالى: ﴿تَسْلِيمًا﴾، مصدرٌ وتأكيدٌ لفظيٌّ؛ لقوله تعالى: ﴿سَلِّمُوا﴾.

فائدة:

وإنما لم يؤكد الأمر بالصلاة عليه بمصدر فيقال: صلوا عليه صلاة، لأن الصلاة غلب إطلاقها على معنى الاسم دون المصدر، وقياس المصدر التصليّة ولم يستعمل في الكلام؛ لأنه اشتهر في الإحراق، قال تعالى: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٤].^٢

ولأنَّ الأمر بالصلاة عليه قد حصل تأكيدُه بالمعنى في أول الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾. وفي هذا ترغيب عظيم في الاقتداء بِشأنِ الله تعالى وملائكته في الصلاة عليه.

وفائدة التأكيد هنا: الإشارة إلى عظيم منزلة النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتنويه بعلو قدره عند الله تعالى، وارتفاع منزلته.

ومثال التوكيد اللفظي بلفظه توكيدُ الجملة، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^٣.

فإن الجملة الثانية وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، توكيدٌ للجملة الأولى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

أتى لفظ: ﴿الْعُسْرُ﴾ معرفًا في الموضعين، والتعريف في الموضع الثاني لِلْعَهْدِ، فيكون العُسْرُ واحدًا، وأتى لفظ: ﴿يُسْرًا﴾، مُنْكَرًا في الموضعين للتَّوَعُّدِ؛ فيكون الثاني مغايرًا للأول ويكون اليُسْرُ اثنين.

١ - سورة الأحزاب: الآية / ٥٦

٢ - تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير (١٠٣ / ٢٢)

٣ - سورة الشرح: الآية / ٥، ٦

وفائدة التأكيد هنا: تطمين الله تعالى لعباده أن العسر لا بد أن يعقبه يسر كما كان يسبقه يسر، ولن يغلب عسر يسرين.

فائدة:

قال أبو عبيدة وغيره من أهل العلم باللغة إن النكرة إذا ثبتت كانت اثنتين فقوله يسرا ويسرا يسرا والعسر والعسر عسر واحد كأنه جاء للتأكيد لأنه معرفة هكذا قالوا أو معناه.^١
وقال الفراء: العرب إذا ذكرت نكرة ثم أعادتها بنكرة مثلها صارتا ثنتين، وإذا أعادتها بمعرفة فهي هي. تقول من ذلك: إذا كسبت درهماً فأنفق درهماً، فالثاني غير الأول، فإذا أعدته بالألف واللام فهي هي، تقول من ذلك: إذا كسبت درهماً فأنفق الدرهم، فالثاني هو الأول.^٢
وقيل: إن وجه ذلك أنه لما عرّف العسر اقتضى استغراق الجنس فكان العسر الأول هو الثاني من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ولما كان اليسر منكراً كان الأول منه غير الثاني.^٣

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾.^٤
فإن الجملة الثانية وهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾، تؤكد للجملة الأولى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾.

وفائدة التأكيد هنا: تعظيم شأن يوم القيامة.

ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.^٥
فإن الجملة الثانية وهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، تؤكد للجملة الأولى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وفائدة التأكيد هنا: المبالغة في الوعيد، قال الحسن البصري: هذا وعيدٌ بعد وعيدٍ.

١ - الاستذكار (٢٠ / ٥)

٢ - تهذيب اللغة (٤٩ / ٢)

٣ - المنتقى شرح الموطأ (١٦٥ / ٣)

٤ - سورة الانفطار: الآية / ١٧، ١٨

٥ - سورة التكاثر: الآية / ٣، ٤

تنبيه:

ليس من باب التوكيد اللفظي قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾^١.
ولكن المعنى أَنَّ الدَّكَ كُرِّرَ عليها، فالمراد أن الأرض دكت دَكًّا بعد دَكٍّ، حَتَّى صارت هَبَاءً
منثورًا، كقول القائل: قرأت النَحْوَ بابًا بابًا.

قال القرطبي: دَكًّا دَكًّا أي: مرَّةً بعد مرَّةٍ^٢.

وقال أبو حيان: دَكًّا دَكًّا: حال كقولهم: بابًا بابًا، أي مكرَّرًا عليهم الدك^٣.

وليس من باب التوكيد كذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾^٤.
وإنما المراد أَنَّ مَلَائِكَةَ كُلِّ سَمَاءٍ تَنْزِلُ فَيَصْطَفُونَ صُفُوفًا، صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ مُحِيطِينَ بِالْإِنْسِ
وَالْجِنِّ.

قال الزَّمَخْشَرِيُّ: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾، ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صَفًّا بعد صف محدقين
بالجن والإنس^٥.

وليس من باب التوكيد كذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا
سَلَامًا سَلَامًا﴾^٦.

فإن ﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ الثانية ليس تأكيدًا ل: ﴿سَلَامًا﴾ الأولى، وإنما المراد أَنَّ المَلَائِكَةَ تسلم
عليهما سَلَامًا بعد سَلَامٍ، فالمراد ببيان تَكْرِيرِ السَّلَامِ وَلَيْسَ تَأْكِيدُ السَّلَامِ الْأَوَّلِ.

١ - سورة الفجر: الآية/ ٢١

٢ - تفسير القرطبي (٢٠ / ٥٤)

٣ - البحر المحيط في التفسير (١٠ / ٤٧٥)

٤ - سورة الفجر: الآية/ ٢٢

٥ - الكشف عن حقائق غوامض التنزيل (٤ / ٧٥١)

٦ - سورة الواقعة: الآية/ ٢٥، ٢٦

قال ابن عاشور: ﴿وَسَلَامًا﴾، الأول مقول قِيلاً أي هذا اللفظ الذي تقديره: سلمنا سلامًا، فهو جملة محكية بالقول، ﴿وَسَلَامًا﴾، الثاني تكرير لـ ﴿سَلَامًا﴾، الأول تكريرًا ليس للتأكيد بل لإفادة التعاقب، أي سلامًا إثر سلام.^١

ومن التوكيد اللفظي: توكيد الضمير المنفصل بمثله، ومثال ذلك قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُتِمُّونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.^٢

فإن الضمير المنفصل، الذي هو لفظ: ﴿هُمْ﴾، من قوله تعالى: ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾، تأكيد للضمير الأول وهو لفظ: ﴿هُمْ﴾، من قوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾.

وفائدة التأكيد بإعادة الضمير هنا: أن هؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: هم الموقنون بالآخرة، وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأنَّ خوف العقابة يحملهم على تحمل المشاق.^٣

ومن التوكيد اللفظي أيضًا: توكيد الضمير المتصل بالمنفصل كقوله سبحانه: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾.^٤

فإن الضمير المنفصل، الذي هو لفظ: ﴿نَحْنُ﴾، من قوله تعالى: ﴿نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾، تأكيد للضمير المتصل من قوله تعالى: ﴿نَكُونَ﴾.

وفائدة التأكيد إظهار ثقتهم بسحرهم واعتدادهم بأنفسهم.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾.^٥

فإن الضمير المنفصل، الذي هو لفظ: ﴿أَنْتَ﴾، من قوله تعالى: ﴿أَنْتَ الْأَعْلَى﴾، تأكيد للضمير المتصل من قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ﴾.

وفائدة التأكيد هنا تثبيت قلب موسى عليه السلام وبعث الطمأنينة في نفسه.

١ - التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٩٧)

٢ - سورة النمل: الآية/ ٣

٣ - تفسير الكشاف (٣/ ٣٤٧)

٤ - سورة الأعراف: الآية/ ١١٥

٥ - سورة طه: الآية/ ٦٨

ومن التوكيد اللفظي أيضاً: تَوْكِيدُ الفعل بمصدره، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^١.

فإن المصدر: ﴿تَكْلِيمًا﴾، تَوْكِيدُ للفعل ﴿كَلَّمَ﴾. وفائدة التأكيد هنا دفع توهم المجاز، فإن الكلام قد يطلق على الإيحاء، فأتى المصدر وهو قوله تعالى: ﴿تَكْلِيمًا﴾، بعد قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى﴾؛ لبيان أن الكلام كلام حقيقي وليس مجازياً.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾^٢. فإن المصدر: ﴿مَوْرًا﴾، تَوْكِيدُ للفعل ﴿تَمُورُ﴾. وكذلك فإن المصدر: ﴿سَيْرًا﴾، تَوْكِيدُ للفعل ﴿تَسِيرُ﴾. وفائدة التأكيد هنا أن مور السماء واضطرابها، وسير الجبال مما قد تتردد النفس في قبوله، فجيء بالمصدر؛ لدفع ما يعتل في النفس من الشك أو التردد في قبول ذلك.

ومما يلحق بالتوكيد اللفظي: توكيد الفعل بمصدر آخر غير المصدر المؤكد للفعل المذكور، وإن كان في هذا خروج عن القاعدة الأصلية في تأكيد الفعل بمصدره، وأن يأتي المصدر المؤكد اتِّبَاعًا لِفِعْلِهِ كما مر معنا في الأمثلة السابقة، ولذلك لنكت بلاغية رائعة، وفوائد بيانية رائعة كما سنبين.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾^٣.

فإن مصدر الفعل ﴿تَبَتَّلْ﴾ هو: تَبَتَّلًا وليس ﴿تَبْتِيلًا﴾، و﴿تَبْتِيلًا﴾ هو مصدر بَتَّلَ. والحكمة في العدول عن مصدر الفعل المذكور في الآية أن الفعل ﴿تَبَتَّلْ﴾ يدل على التكلف والتدرج، وهو أول درجات الاجتهاد في العبادة، والمصدر ﴿تَبْتِيلًا﴾، يدل على التكثير والمبالغة، وهو النهاية في الاجتهاد في العبادة فَضُمِّنَ الفعل: ﴿تَبَتَّلْ﴾ التكلف مَعْنَى الفعل: (بَتَّلَ) الذي يفيد المبالغة بَتَّلَ نفسك إليه تَبْتِيلًا^٤.

١ - سورة النساء: الآية / ١٦٤

٢ - سورة الطور: الآية / ٩، ١٠

٣ - سورة المزمل: الآية / ٨

٤ - انظر البرهان في علوم القرآن (٢ / ٣٩٥)، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢ / ٣٢٣)

قال ابن القيم: ومصدر بتل تبتلا كالتعلم والتفهم، ولكن جاء على التفعيل - مصدر تفعّل - لسر لطيف. فإن في هذا الفعل إيذاناً بالتدريج والتكلف والتعمّل والتكثر والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على أحدهما، وبالمصدر الدال على الآخر. فكأنه قيل: بتل نفسك إلى الله تبتيلاً، وتبتل إليه تبتلاً. ففهم المعنيان من الفعل ومصدره. وهذا كثير في القرآن. وهو من أحسن الاختصار والإيجاز.^١

وقال الفخر الرازي: الواجب أن يقال: وتبتل إليه تبتلاً أو يقال: بتل نفسك إليه تبتيلاً، لكنه تعالى لم يذكرهما واختار هذه العبارة الدقيقة وهي أن المقصود بالذات إنما هو التبتل فأما التبتيل فهو تصرف والمشتغل بالتصرف لا يكون متبتلاً إلى الله لأن المشتغل بغير الله لا يكون منقطعاً إلى الله، إلا أنه لا بد أولاً من التبتيل حتى يحصل التبتل كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فذكر التبتل أولاً إشعاراً بأنه المقصود بالذات وذكر التبتيل ثانياً إشعاراً بأنه لا بد منه ولكنه مقصود بالغرض.^٢

قال قتادة: ﴿وَتَبَتَّلَ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾: أخلص له العبادة والدعوة.^٣

وأصل التبتل في اللغة القطع، وقيل لمريم البتول لأنها انقطعت إلى الله تعالى في العبادة، وصدقة بتلة منقطعة من مال صاحبها. وقال الليث: التبتيل تمييز الشيء عن الشيء، والبتول كل امرأة تنقبض من الرجال، لا رغبة لها فيهم. إذا عرفت ذلك فاعلم أن للمفسرين عبارات، قال الفراء: يقال للعابد إذا ترك كل شيء وأقبل على العبادة قد تبتل أي انقطع عن كل شيء إلى أمر الله وطاعته.^٤

ومما يلحق بالتوكيد اللفظي: قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.^٥

فإن مصدر الفعل ﴿أُعَذِّبُهُ﴾ هو: تَعَذَّيًّا وليس ﴿عَذَابًا﴾، و﴿عَذَابًا﴾ هو اسم المصدر.

١ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣١ / ٢)

٢ - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٦٨٧ / ٣٠)

٣ - جامع البيان (٣٧٩ / ٢٣)

٤ - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٦٨٧ / ٣٠)

٥ - سورة المائدة: الآية / ١١٥

والحكمة في العدول عن مصدر الفعل المذكور في الآية إلى اسم المصدر أن المراد: فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ جنسًا من العذاب لا أُعَذِّبُ بِهِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، على تقدير حذف حرف الجر، ولا شك أن هذا تهديد شديد، ووعد عظيم، من الله تبارك وتعالى، والسبب أن الله تعالى جعل لمثل هؤلاء لونا من العذاب، وجنسًا من العقاب مغايرًا لسائر الكفار؛ أن الله تعالى أقام لهم الأدلة والبراهين على وحدانيته وكمال قدرته، وأن هذه الأدلة كانت بطلب منهم، فمن كفر بعد ذلك فإن سبب كفره هو الجحود، والعناد.

والجه الثاني أن يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿لَا أُعَذِّبُهُ﴾ عائداً على المصدر، فيكون المعنى فَإِنِّي أعذبه تعذيباً ﴿لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾^١.

فإن مصدر الفعل ﴿يُقْرِضُ﴾ هو: إقراضاً؛ لأنه من أقرض الرباعي، وليس ﴿قَرْضًا﴾؛ لأن ﴿قَرْضًا﴾ مصدر قرض الثلاثي.

والحكمة في العدول عن مصدر الفعل المذكور في الآية ﴿يُقْرِضُ﴾ إلى مصدر (قَرْض)، وهو ﴿قَرْضًا﴾، لأن القرض يطلق ويراد به المال، ويطلق ويراد به الفعل وهو الإقراض، فجمع بين الأمرين في الآية، الفعل الذي هو الإقراض دل عليه الفعل ﴿يُقْرِضُ﴾، والمال الذي هو القرض دل عليه لفظ: ﴿قَرْضًا﴾، ليجتمع الإحسان في الفعل والمال، فيكون الإقراض حسناً، ليس فيه مَنْ ولا أذى، ولا رباً، ويكون المال حلالاً طيباً.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾^٢.

فإن مصدر الفعل (أَنْبَتَ) من قوله تعالى: ﴿أَنْبَتَهَا﴾ هو: إنباتاً؛ لأنه رباعي، وليس ﴿نَبَاتًا﴾؛ لأن ﴿نَبَاتًا﴾ مصدر نبت الثلاثي.

والحكمة في العدول عن مصدر الفعل المذكور في الآية: ﴿أَنْبَتَهَا﴾، إلى مصدر (نَبَتَ) وهو: ﴿نَبَاتًا﴾؛ هو الثناء على مريمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ بالاستقامة على أمر الله تعالى، وحسن طاعته؛ لأن الله تعالى أَنْبَتَهَا فنبتت نَبَاتًا حَسَنًا، فدل الفعل على تعهد الله تعالى لها بالرعاية،

١ - سورة البقرة: الآية: ٢٤٥

٢ - سورة آل عمران: الآية/ ٣٧

ودل المصدر على كرم أصلها، وحسن استقامتها، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾^١.

ومما يلحق بالتوكيد اللفظي: أيضاً توكيد الفعل بالحال المؤكدة، وسميت حال مؤكدة؛ لأنها تُعلم قبل ذكرها؛ فيكون ذكرها توكيداً، لأنها معلومة من ذكر صاحبها.^٢

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^٣.

فإن قوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾، حال من الواو في قوله: ﴿تَعْتَوْا﴾، وهي مؤكدة للفعل: ﴿تَعْتَوْا﴾، فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَوْا﴾، من عَثِيَ يَعْتِي عَثْوًا وَمَعْنَاهُ أَفْسَدَ أَشَدَّ الْإِفْسَادِ، فأتى قوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾، لتأكيد الفعل: ﴿تَعْتَوْا﴾.

وفائدة التوكيد: بيان ما هم عليه من المبالغة في الإفساد، وتحذيرهم من مغبة ذلك.

ومن توكيد الفعل بالحال المؤكدة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾^٤.

فإن قوله: ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾، في محل نصب حال وهي حال مؤكدة لأنها في معنى تَوَلَّيْتُمْ.

وفائدة التوكيد بلفظ: ﴿مُعْرِضُونَ﴾ الدلالة على تناهي حالهم في الضلال، وتناهي أفعالهم في القبح.

ومن توكيد الفعل بالحال المؤكدة قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾^٥.

فإن قوله تعالى: ﴿حَيًّا﴾ توكيد لقوله: ﴿أُبْعَثُ﴾، فإن من لوازم البعث الحياة، فمعناها مستفاد من ذكر لفظ الحياة، فلما ذكر بعدها الحال ﴿حَيًّا﴾، كان تأكيداً لقوله: ﴿أُبْعَثُ﴾.

١ - سورة نوح: الآية / ١٧

٢ - انظر البرهان في علوم القرآن (٢ / ٤٩٨)

٣ - سورة البقرة: الآية / ٦٠

٤ - سورة البقرة: الآية / ٨٣

٥ - سورة مريم: الآية / ٣٣

والحكمة من التوكيد هنا، أن عيسى عليه السلام لما رفعه الله تعالى إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^١.

ربما توهم بعض الناس أنه لا يموت كما يموت غيره من المخلوقات، لأنه رفع إلى السماء حيا، فدلّت الآية على أنه يموت كما تموت الخلائق، بعد نزوله إلى الأرض قبل قيام الساعة، ويبعث كما تبعث المخلوقات، ويحيا كما يحيون بعد البعث.

ومما يلحق بالتوكيد اللفظي: أيضا توكيد الفعل بالحال المؤكدة.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾^٢.

فإن قوله: ﴿ضَاحِكًا﴾، منصوب على الحال من الضمير في قوله: ﴿فَتَبَسَّمَ﴾، وهي مؤكدة للفعل: ﴿تَبَسَّمَ﴾، فإن معنى تبسم: أي ضحك مسرورا، وقيل: هي حال مقدرة فإن التبسم ابتداء الضحك، والراجح أنها حال مؤكدة للفعل، لأن ضحك الأنبياء عليهم السلام تبسم.

وفائدة التأكيد هنا: بيان أن الضحك كان سرورا بما قالته النملة، فإن التبسم قد يكون للغضب، ومنه قول كعب بن مالك: "فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمُ الْمُغْضَبِ"، وقد يكون سرورا.

وإنما تَبَسَّمَ ضَاحِكًا لسببين: أحدهما سرورا بما أعطاه الله من النعم حيث سمع قول النملة وفهم مرادها؛ والثاني: لثناء النملة عليه وعلى جنوده، فإن قولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وصف لهم بالتقوى، والتحفظ من الظلم، بل ومن مضرة الحيوان، ولا عجب في ذلك فقد كان كلام النملة عجيبيّا.

قال بعض العلماء في هذه الآية: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^٣.

١ - سورة النساء: الآية/ ١٥٧، ١٥٨

٢ - سورة النمل: الآية/ ١٩

٣ - سورة النمل: الآية/ ١٨

هذه الآية من عجائب القرآن لما فيها من أنواع من البلاغة، لأنها بلفظة ﴿يَا﴾ نادَتْ و﴿أَيُّهَا﴾ نهبت، و﴿التَّمَلُّ﴾ عَيَّنَتْ، و﴿ادْخُلُوا﴾ أَمَرَتْ، و﴿مَسَاكِنُكُمْ﴾ نَصَّتْ، و﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ حَذَّرَتْ، و﴿سُلَيْمَانُ﴾ خَصَّتْ، و﴿وَجُنُودُهُ﴾ عَمَّتْ، و﴿وَهُمْ﴾ أَشَارَتْ، و﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ عَذَرَتْ.^١

ومما يلحق بالتوكيد اللفظي أيضاً توكيد الفعل بالحال المؤكدة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾.^٢

فإن قوله: ﴿رَسُولًا﴾، منصوب على أنه حال من الكاف في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾، وهي حال مؤكدة لعاملها وهو: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ لفظاً ومعنى.

وقيل: ﴿رَسُولًا﴾، مصدر مؤكّد بمعنى ذا رسالة أو بمعنى إرسال، وليست حال مؤكدة لأن الشيء المرسل قد لا يكون رسولا كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾.

والراجع أنها حال مؤكدة للفعل.

وفائدة التأكيد هنا: التنبيه على عظم مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم وجلال قدره، وعلو شأنه وأن الله أرسله للناس جميعاً، فرسلته عامة للناس وليست قاصرة على العرب الذين بعث فيهم كما تزعم فرقة من اليهود، ومن فائدة التأكيد كذلك، أنه أرسل جامعاً لأكمل كل صفات الرسل.

ومن فائدة التأكيد كذلك بـ ﴿رَسُولًا﴾، الرد على المشركين الذين تطيروا برسالته صلى الله عليه وسلم، وادعوا أنه سبب وقوع السيئات، فإن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾، أي أرسلناك مبلغاً عن الله لا مؤثراً في الحوادث، وليست بعثتك علامة على وقوع الحوادث السيئة.

١ - انظر زاد المسير في علم التفسير (٥ / ١٩)، وتفسير السراج المنير (٣ / ٦١)

٢ - سورة النساء: الآية/ ٧٩

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾^١.

فإنَّ قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، في محلِّ نصب حال وهي حالٌ مؤكِّدة؛ لأنَّ معنى الإقرار قريب من معنى الشهادة.

وفائدة التَّأْكِيدِ هنا: إقامة الحجة عليهم، حيث إنهم أقرُّوا بهذا الميثاق الذي أخذه الله تعالى عليهم، وهم يعتقدونه بقلوبهم، ولا ينكرونه، بل يشهدون به ويعلنونه.

الخاتمة

لا شك أن من عجائب القرآن تلك الأساليب البلاغية، والتراكيب الفريدة، مع جودة السبك ورصانة الألفاظ، وحسن النظم، وسلطان القرآن على القلوب، وغير ذلك من دلائل إعجازه، وأسراره التي تحلق بمن أقبل عليه في سماء البيان، ولا ينقضي منها العجب. فمن أراد سعادة الدنيا والآخرة فعليه بالقرآن تلاوة وتدبراً وعملاً؛ فإنه جبل الله المتين، وصراطه المستقيم، لا تزيع به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.

قال مالك بن دينار رحمه الله: يا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم، فإن القرآن ربيع المؤمنين كما أن الغيث ربيع الأرض، وقد ينزل الغيث من السماء إلى الأرض فيصيب الحش فتكون فيه الحبة فلا يمنعها نتن موضعها أن تخضر وتهتز وتحسن، فيا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟^١

وقال وهيب بن الورد رحمه الله: قيل لرجل ألا تنام؟ قال: إن عجائب القرآن أطرن نومي.^٢

وصحب رجل رجلاً شهريين فلم يره نائماً فقال: مالي لا أراك نائماً قال: إن عجائب القرآن أطرن نومي ما أخرج من أعجوبة إلا وقعت في أخرى.^٣

وقال أحمد بن الحواري رحمه الله: إني لأقرأ القرآن، وأنظر في آية فيحير عقلي بها، وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم، ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الله، أما إنهم لو فهموا ما يتلون، وعرفوا حقه وتلذذوا به، واستحلوا المناجاة به؛ لذهب عنهم النوم فرحاً بما رزقوا.^٤

نسأل الله أن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلُه وخاصته.

١ - التبصرة لابن الجوزي (٢ / ٢٦٨)

٢ - لطائف المعارف (ص: ١٧٣)

٣ - لطائف المعارف (ص: ١٧٣)

٤ - لطائف المعارف (ص: ١٧٣)

الفهرس

| | |
|---|----|
| المقدمة | ٣ |
| الفصل الأول | ٨ |
| بلاغة القرآن | ٩ |
| الفصل الثاني | ٢١ |
| مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ الْبَلَاغِيَّةِ | ٢١ |
| الاحتباك | ٢٢ |
| حدُّ الاحتباك: | ٢٢ |
| من صور الاحتباك في كتاب الله تعالى: | ٢٣ |
| الالتفات | ٣٧ |
| حدُّ الالتفات: | ٣٧ |
| فائدته: | ٣٧ |
| شرط الالتفات: | ٣٨ |
| مثال الالتفات من التَّكْلُمِ إِلَى الْعَيْبَةِ: | ٣٨ |
| مثال الالتفات مِنْ الْوَاحِدِ إِلَى الْجَمْعِ: | ٤٠ |
| مثال الالتفات مِنَ الْعَيْبَةِ إِلَى التَّكْلُمِ: | ٤٠ |
| مثال الالتفات من الْعَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ: | ٤١ |
| التَّضْمِينُ | ٤٣ |
| حدُّ التَّضْمِينِ: | ٤٣ |
| التَّضْمِينُ بَيْنَ الْكُوفِيِّينَ وَالْبَصْرِيِّينَ: | ٤٤ |
| التَّضْمِينُ فِي الْأَسْمَاءِ: | ٤٥ |

- ٤٥ أمثلة على التّضمين في الأسماء:
- ٤٦ التّضمين في الحروف:
- ٤٦ أمثلة على التّضمين في الحروف:
- ٤٧ التّضمين في الأفعال:
- ٤٧ أمثلة على التّضمين في الأفعال:
- ٥٩ التّغليب
- ٥٩ حدُّ التّغليب:
- ٦٠ أمثلة التّغليب:
- ٦٨ خُرُوجُ اللَّفْظِ مَخْرَجَ الْغَالِبِ
- ٦٨ أمثلة على خُرُوجِ اللَّفْظِ مَخْرَجَ الْغَالِبِ:
- ٧١ اللَّفُّ وَالنَّشْرُ
- ٧١ تعريف اللَّفِّ وَالنَّشْرِ:
- ٧٢ أقسام اللَّفِّ وَالنَّشْرِ:
- ٧٢ أولاً: اللَّفُّ وَالنَّشْرُ الْمُرْتَبُّ:
- ٧٥ ثانياً: اللَّفُّ وَالنَّشْرُ غَيْرُ الْمُرْتَبِّ:
- ٧٨ الإيجاز
- ٧٨ الفرق بين إيجازِ القصْرِ وإيجازِ الحذف:
- ٨٢ ثانياً: إيجازُ الحذف:
- ٨٢ أمثلة حَذْفِ حَرْفٍ:
- ٨٣ أمثلة حَذْفِ كَلِمَةٍ:
- ٨٦ أمثلة حَذْفِ أَكْثَرِ مِنْ كَلِمَةٍ:
- ٩١ الإطنابُ

- تعريف الإطناب: ٩١
- أقسام الإطناب: ٩١
- أمثلة الإطناب: ٩٢
- القسم الأول الإطناب بالبسط: ٩٢
- القسم الثاني إطناب الزيادة: ٩٨
- أمثلة إطناب الزيادة: ٩٨
- عطف الخاص على العام ١٠٢
- فائدته: ١٠٢
- أمثلة عطف الخاص على العام: ١٠٢
- عطف العام على الخاص ١٠٨
- التذييل ١١٢
- حدُّ التذييل: ١١٢
- أقسام التذييل: ١١٢
- أمثلة ما لا يجري مجرى المثل: ١١٣
- الاحتباس ١١٦
- حدُّ الاحتباس: ١١٦
- أمثلة الاحتباس: ١١٦
- الاعتراض ١٢٠
- حدُّ الاعتراض: ١٢٠
- أسباب الاعتراض: ١٢٠
- وضع الظاهر موضع المضمَر ١٣٢
- العامُّ المرادُّ به الخصوص ١٤٠

- حُدُّ الْعَامِّ: ١٤٠
- أَلْفَاظُ الْعُمُومِ: ١٤٠
- حُدُّ الْخَاصِّ: ١٤٠
- التَّرْقِي: ١٤٩
- حُدُّ التَّرْقِي: ١٤٩
- أَمْثَلُهُ التَّرْقِي: ١٤٩
- الطَّبَاقُ: ١٥٧
- تَعْرِيفُ الطَّبَاقِ: ١٥٧
- أَوَّلُ الطَّبَاقِ اللَّفْظِيُّ: ١٥٨
- أَمْثَلُهُ الطَّبَاقِ الْمَعْنَوِيِّ: ١٦٠
- تَعْرِيفُ طَبَاقِ السَّلْبِ: ١٦١
- أَمْثَلُهُ الطَّبَاقِ فِي الْأَسْمَاءِ: ١٦٢
- المُدْرَجُ: ١٦٤
- تَعْرِيفُ الْمُدْرَجِ: ١٦٤
- أَمْثَلُهُ الْمُدْرَجِ: ١٦٤
- الْكِنَايَةُ: ١٦٩
- تَعْرِيفُ الْكِنَايَةِ: ١٦٩
- أَسْبَابُ الْكِنَايَةِ: ١٦٩
- ضَرْبُ الْأَمْثَالِ: ١٧٦
- تَعْرِيفُ الْمُثَلِّ: ١٧٦
- فَوَائِدُ تَعْلَمُ أَمْثَالَ الْقُرْآنِ: ١٧٧
- فَائِدَةُ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ فِي الْقُرْآنِ: ١٧٨

| | |
|------------------------------|----------|
| الأمثال في القرآن قِسْمَانِ: | ١٧٩..... |
| مَثَلُ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ: | ١٧٩..... |
| التَّلْفِيفُ | ١٩٩..... |
| تعريف التَّلْفِيفِ: | ١٩٩..... |
| أمثلة التَّلْفِيفِ: | ٢٠٠..... |
| التَّقْسِيمُ | ٢٠٤..... |
| تعريف التَّقْسِيمِ: | ٢٠٤..... |
| أمثلة التَّقْسِيمِ: | ٢٠٤..... |
| التَّأْكِيدُ | ٢١١..... |
| تعريف التَّأْكِيدِ: | ٢١١..... |
| الْعَرَضُ مِنَ التَّأْكِيدِ: | ٢١١..... |
| أَفْسَاؤُ التَّوَكِيدِ: | ٢١٢..... |
| أولاً التوكيد اللفظي: | ٢١٢..... |
| الخاتمة | ٢٢٥..... |
| الفهرس | ٢٢٦..... |